... اهتدى الغيطانى فى اعقاب ٦٧ الى اسلوب مميز . فقد عاد بلغته وتركيب جمله الى التاريخ . الى ذاكرة الناس . تلاقت كتابات الغيطانى مع احاسيس الناس فى تلك الفترة ووضعه النقاد والقراء فى مكان الصدارة .

وتوالت اعماله مؤكدة انه كاتب متمكن يتمتع بقدر كبير من الدأب والاصرار . واختلفت الرؤيا فيما يلى ذلك من اعمال بدأت بذكر ماجرى وقصة العسرى . ثم نوبة حراسة . توجه الكاتب فى هذه الاعمال الى ضمير الناس الاجتماعى . الى المفارقة الكبيرة التى يخلقها الفقر والقهر ، وحاول أن يقيم اعماله على التعبير عن التناقض ، وايقاظ مايوحى به من دلالات ، وقطع بذلك مسافة طويلة من الذاكرة الى الضمير . اهم مايميز اعمال الغيطانى من ١٩٦٩ الى ١٩٨٠ ، هو الاصرار على الاحساس بالمسئولية الاجتماعية للأدب ، الاحساس بأن الأدب وظيفة لخدمة الناس ومناقشة مايعانون منه من قضايا ومشاكل . الخلق والابداع هو المجال الذى ينطلق اليه اصرار الغيطانى وعمله الدائم .

علاء الديب

2.00.

إخاف الزمن بحكاية جلبي السلطان

قصص قصيرة

جمال الغيطاني

دار المستقبل العربي

تصميم الغلاف : الفنان بهجت عثمان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

إلى الأصدقاء في منتدى ليلاس..

بدر

إتحاف الزمان بحكاية جلى السلطان

دار المستقبل العربي
للنشر والتوزيع

٤١ شارع بيروت ـ مصر الجديدة
ت : ٦٦٥٩٠٠ القاهرة

كان الغلام عبد الرازق يجلس أمام دكانى ، كان يتيم الأب ، بل ان واحدا من أهل الحظ لا يعْرف ولا يذكر له أبا ، أما أمه فأمرأة ضائعة تسوس الخيل ، تتشاجر دائماً مع النساء بسبب وبدون سبب ، غير أن عبد الرازق كان صغير السن ، هادىء الطبع ، يحبه الزبائن لرقة خلقه ، وخفة يده ، ومهارته ، ولم أسمعه فى حياتى يزعق لانسان ، وحببنى هذا فيه فسمحت له بالجلوس أمام دكانى .. واذا ما طفش المماليك فى السوق كنت آويه فى زمامى ، وقد توافدت عليه خدام القلعة ، والبيوت الكبيرة .. بل أن محمد المهتار يرسل فى طلبه فيروح عنده يحلق له ، حتى جاء يوم علت شمسه ، وكثر حره ، وتعاظم غباره ، فكأنه غضب من الله رب العالمين ، على عباده الظالمين ، بدا المهتار فى أول الطريق ، راكبا بغلته ، فصار الخلق يتساءلون عن وجهته ، وحقيقة مقصده ، وعندما حط ركبه أمام دكانى .. اخلع قلبى ، وأرسل جيرانى التجار يطلبون حامى الحسينية ليدفع عنا ما قد يقع علينا ، فى هذا اليوم لم يحلق عبد الرازق الا لرجل أو اثنين مما جعل رأسه يغفو ويقع على صدره ، وعندما رأينا المهتار يشير اليه ، ترحمنا عليه ، ورحنا نخمن ما سيجرى له ، أمره المهتار بلم عدته ، هنا أنكرش نفس الغلام ولم يعد يدرى يمينه من شماله ، فكأنه والعياذ بالله قد أدرك يوم القيامة من دوننا ، ولم نستطع ان نهون عليه ، ولم يحس بنا .. ولا بأهل حارته وهم يسعون وراءه يترحمون عليه ، ويأسفون على شبابه .. أما شيخ الحرفة فأخبرنى فى وقار .. انه لو عاش لبقى له مستقبل عظيم .. ولصار مزينا صاحب محل ، يجلس عنده الزبائن ، ويضع على صدورهم الفوط المنقوشة ، وقد جاءت أمه مسرعة ، حوفا نسوة ينحن ويصرخن .. ولما زادت عن الحد ، خرجت وأمرتها بالنهى عن هذا ..

أما سبب ذلك ، فانه كان لمولانا الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى أعز الله به الاسلام ، آمين ، لحية تحيط وجهه بمهابة يرتاع لها أصحاب القلوب الجامدة ، وقد قام على حلاقتها جلبى خاص عرف بأسم علم الدين ، وكان الجلبى ذا هيبة وسطوة ، اذ ينزل من القلعة تمشى بين يديه الغلمان ، يركب بغلة عالية ، فوق كتفه فوطة حرير كشمير ، وهذا شرف لا يناله الانسان كأى شىء كان فى ذاك الأوان ، غير ان الدنيا غرور لا تستقر على حال ، فقد حدث أن أشار الأمير شاربك الأعور الى لحية مولانا ، قال انها لم تعد تبدو كما يجب ، فانزعج مولانا انزعاجاً شنيعاً ، وصار يتأملها ، ويده يتحسسها ، وبأصابعه يتخللها ، وسرعان ماركبه الهم ، وتدفق الى رأسه وخلف عينيه الدم ، فض مجلسه ، وقام الى غرفته وأرسل فى طلب علم الدين ، فأحضروه مشكوكا فى الحديد وصاح فيه ، تفعل ما فعلت بلحيتى ؟! وبعد أن يبدلوه آخر بهدلة أمر مولانا فقطعت رأسه .. غير أن الأيام توالت ، ولحية السلطان تعظم ولا تجد من يهذبها ، وعرضوا عليه عدة حلاقين ، فلم يعجبه أحد ، حتى دخل عليه محمد المهتار ، وقال إنه يعرف جلبى صغير ، فقير ، ناحية الحسينية .. يدعى عبد الرازق ، لكنه يحلق مليحا ، فقال مولانا : لا تمانع .. أحضره لنا حتى نجربه ..

• • •

انقض علىّ الخدم ، فغسلونى ، وهرشونى باللوف العظيم ، أبدوا تقززا وقرفا ، غير أنى لم أبال ، فقد كنت مشغولا بما جرى لى ، وما قاله محمد المهتار ونحن فى الطريق ، السعد والجاه بين يديك ، وطلوع نجمك أو انخسافه أمام عينيك ، والمطلوب منى بسيط ويسير . وهو أن أتقن الحلاقة الأولى اتقانا عظيما ، عندئذ من يدرى ، ربما أعطانى مائة دينار ، أو .. أو .. مائتين .. طلعت الى قاعة صغيرة ، رخامها بسطع ، وستائرها تلمع ، فى الأركان الأربعة يقف حراس يحملقون الى ، رحت ، ثم جئت ، ثم نظرت من الطاقة الضيقة ، وجف قلبى ، الفراغ فسيح لا أول له ولا آخر ، وتحت كانت البيوت والمآذن ، والغبار ، والصيف عامل عمله ، البلدة كلها ملقاة تحت ، والغريب اننى شغلت نفسى ،

محاولا أن أحدد فى أى المواقع أسكن .. ؟ وكيف تبدو القلعة كرسى السلطنة . عندما أنظر اليها من بين الحوارى ، سمعت صوتا ينادينى ، التفت فاذا به محمد المهتار ، قال : تجهّز .

• • •

غير أن رئيس ديوان الخلع والهدايا أخذته حسرة نفذت الى مرارته فى اليوم التالى ، فقد جاءه الأمر الشريف بصرف كل ما يلزم عبد الرازق ليملأ وظيفة الجلبى ، الى جانب الخلع عليه بفروة سمور .. وفوطة حرير كشمير ، وبالفعل .. فقد صرف له رئيس الديوان بغلا عاليا ، عليه كنبوش لونه أصفر ، تتدلى منه شراشيب ، وأيضا وسائد ، وحشايا ، وستائر ، ودواة ، وعشرون ذراع حرير شاهانى لا يوجد مثيله ، وصار رئيس الديوان يقلب يديه من الدهشة ، وكأن عبد الرازق أدرك ما يجول فى خاطره فابتسم ابتسامة هادئة حيرت الرجل وأسكتته ، وجعلته يناجى نفسه ، فمن بعد الخلاقة للعوام والجميدية والعبيد وأوباش الخلق ، وامتلاء حجره بالقمل يصير جلبيا للسلطان ؟ وهكذا ينال مالم ينله الرجل طوال عمره ، وعندما أخبر عبد الرازق انه مسافر مع السلطان الى الفيوم .. تعاظمت حسرته ، فبعد عشرين سنة من خدمة السلاطين لم ينله شرف كهذا ، أما عبد الرازق فها هو يمضى مع الحاشية ، وربما سئم مولانا فدعاه الى مسامرته ، وربما أعجبه فيصير من خاصته ، عندئذ يلجأ اليه ، ويقف عند بابه ليقضى له حاجة ، ويكون فى نظره انسانا محقرا ضائعا لا قيمة له ، من بعد أن كان لا يجرؤ لعبد الرازق الحلم فى أن يحلق له ، برقت عيناه وهو يرتدى الخلعة الفرو السمور ، وكاد الرجل أن يصيح غيظا لما أبداه عبد الرازق من هدوء وكأنه تعود على هذا ، غير أن رئيس الديوان هنأه فى صوت خفيض .

• • •

« .. عندما تمهل الموكب أمام متجر العطار .. بدا ماثر من أيام بعيدا

قاصيا ، بل أننى — ساءلت نفسى . هل نوديت يوما بالغلام عبد الرازق ، وهل هذا الرصيف أكل حتتا من لحمى طوال جلوسى فوقه ، وهل حقا مر فى يوم فرحت فيه فرحا مهولا لأن واحدا من خدام القلعة حلق عندى ، واذا جاءنى تاجر صبغة ، أو عطار ، أو حمال ، أكرر عليه بسبب أو من غير سبب أن خادما من خدام القلعة حلق عندى قبله .. راح زمن من عمرى فى هذا .. وعندما تحرك الركب مرة ثانية ، ارتفعت الأصوات بالدعاء ، أهل الشارع لم يعرفونى ، فعمامتى عالية .. وخلعة مولاى الحمراء تبرق على كتفى ، ومن أين لهم أن يعرفونى ؟ ، وفجأة ارتعبت ، أفق ياعبد الرازق ياجلبى ، ربما أنت فى حلم ، لكن استغفرك ربى ، هل جرؤت يوما على الحلم بمثل هذا ، فى السكة الى الفيوم ، كانت محفة السلطان تحط كثيرا ، أجلس بجوار رجاله ، الأمير الداودار الكبير ، بينى وبينه مقدار ذراع واحدة ، التزمت الصمت حتى لا أتفوه بلفظ قد يقع من قلوبهم موقعا غير حسن خاصة أن كلهم يعرفون اصلى ، بل انى حافظت على سكناتى وحركاتى تمنيت لو أن لى عينين أرى بهما نفسى من الخارج،أرقب أفعالى وهل هى لائقة أم غير لائقة ، بل أخرجت أنفاسى حذرا لئلا تزعجهم ، تطلعت الى أرباب المملكة وحملة السيف ، وفرسان الاسلام ، أحاول التعرف عليهم ، يقول مولانا مخاطبا هذا العجوز الأعور . ياشاربك ، أعرف أن هذا هو من يلقى الرعب فى قلوب العامة ، ولو ذكر أسمه لسقطت الحامل اذ تسمعه . عندما يبدو موكبه ويسمع الناس انه أزمع الركوب والنزول من القلعة ليشق من المدينة ، يغلقون دكاكينهم ، يلمون حاجاتهم ، فهو قاس لا يرحم ، يحتكر بيع الخيار الشنير . اذ وجدته رقيقا فى نفسه ، يتكلم أمام سيدنا ومولانا بتواضع ان لم يكن مسكنة ومذلة ، حرت فى أمره ، حتى كدت أقول انه غير ما نسمع عنه ، هل يتصور العامة ان شاربك أو شربة الأعور كما يسمونه يركع لمخلوق ؟ ، سخرت منهم ولعنتهم فى نفسى ، من يدرى ، ربما كان هذا الشيخ الرّمال — ضارب الرمل — والجالس بجوارى يقرأ فكرى ويطلع على سرى ، عندئذ يعرف اننى ألعن السوقة لأنهم قالوا ماقالوه عن واحد من رجال مولانا . تعرفت أيضا الى الأمير طقطق باى ، وقاضى

القضاة ، وهو شيخ مهيب ، ذقنه عظيمة يفوح منها المسك والعنبر ، والله أهالى الناحية بلهاء مجانين ، قاتل الله الضعة ، يتقولون على الصالحين .. شهور كاملة ظلوا يرددون فيها انه يرطل على السلطان يرطيلا مهولا يقدر بعشرات الألوف من الدنانير حتى يعينه قاضيا للقضاة ، اعتدلت فى جلستى ، وكلما مضى الزمن رأيت فيهم أناسا لطافا خفافا يتحدثون مثلى .. بل يمزحون ، يسخرون ، ويتناغشون . أوغل الليل والهواء لا يهش ولا ينش ، ولاحظت أن الأمير المقرى نظر الىّ ، مرة أثر مرة ، خفضت نظرى ، ضحك ، قال لمولاى بلسان فصيح : الجلبى ساكت كالحجر ، أليس عنده ما يهيج مولانا خاصة وأن الجلبية يعرفون من الحكايات مما لا أول له ولا آخر ؟ ، احاطتنى العيون ، الآذان تنتظر ما أقوله ، ارتج علىّ ، غير أنى تداركت نفسى ، قلت وعيناى تطرفان ، الأدب واجب فى حضرة الملوك ، صاح أكثر من واحد : الله .. الله .. وفجأة مال سلطان المسلمين وحامى البيت ، ولاحظت أن لحيته تبدو أكثر مهابة وحسنا وجمالا عما رأيتها أول يوم ، ويالعجب صوته كأى صوت ، ونظراته ، سكناته وحركاته ، رحت أتملى وأسمع ، طاف خاطر خبيث بذهنى طردته كما تطرد ناموسة ثقيلة الظل ، كأنى سمعت الصوت ، شيخ عجوز يبيع البسبوسة تحت باب الفتوح اذ يراه القوم مقبلا .. يتزاحمون حوله ، يقف متشاغلا فى نفسه ، متعاظما فى روحه ، يقول بصوت عال غليظ كأنه يقطر سمنة .. بالدور .. بالدور .. ارتعبت من المقارنة ، لعنت فكرى ، الأيام التى رأيت فيها بائع البسبوسة ، غير أن ماقاله مولاى أنزل بردا وسلاما على قلبى ، غمر صدرى راحة ، مليح .. مليح ، على من تلقيت علمك ياجلبى ؟ قلت بمنتهى الأدب : على يد أشهر المزينين فى مصر ، المعلم الزهتونى رحمه الله وأحسن اليه ، ضج المجلس بالضحك ، انهمر العرق من رأسى وابطى وعنقى وسائر جسمى ، هل أخطأت ، أذنبت ، أى جرم ارتكبت ؟ غير أن قاضى القضاة قال : هذا علمه يامولانا . وعندما تكلم انحنى متودد متأدبا ، وهذا بسبب ذكر اسمى .. « ياعالم هل رجل فى مثل ورعه يوجل على .. على من .. على السلطان ؟ » . أحنيت جسمى .. مليح .. مليح . سألنى عن أى

الأماكن كنت أسكن .. فأجبته اجابة شافية ، وسألنى عن حال الناس فى الخط ، ومايقولونه ويمضغونه من كلام ، وأشهر الحوادث التى كثر الحديث عنها .. ؟ فحكيت له عن المرأة التى ولدت طفلا له رأسان ، أبدى تعجبه ، استعاذ بالله .. قال كيف لم نر ذلك .. ؟ وراح يستفسر عن هيئة المخلوق وصفاته ومنظره .. ؟ وأنا أصف وصفا شافيا جامعا وكأنى رأيت الغلام بنفسى ، استعاذ بالله ، وقال الأمير شاربك انه سمع بمثل هذا فى الهند ، الليل فوقنا يوغل فى العتمة ، تثاءب مولانا لأول مرة ورأيت أسنانه ، أغمض عينيه .. رأيت جفنيه غليظتين منتفختين ، فجأة فتحهما وقال : أنت جلبى مليح .. ابتل قلبى بماء الورد ، غرق صدرى فى روح النعناع ، قمت واقفا . قبلت الأرض بين يديه ، لم يمض الكثير حتى فض مولانا مجلسه ، انصرف الجمع كله ، أقبل على بعض الأمراء يهنئوننى ، السلطان قال عنى جلبى مليح،أثنوا على ، فى خيمتى لم أنم ، وبعد عودتنا اذا قابلت واحدا من الحاشية يوقفنى ويبارك لى ، قال السلطان أنت جلبى مليح ، وأخيرنى الشيخ أحمد ضارب الرمل ، هذا القول له مثيل واحد فى التاريخ ، امتدح المنصور قلاوون فى سالف العصور طعام خادمه ، وكثيرا مايقابلنى الأمير شاربك نفسه .. ألمح فى عينيه رغبة فى أن أحلق له ، لكن من يجرؤ على طلب هذا من جلبى السلطان ؟ لو أخبرت السلطان لأطاح برأسه ، من يدرى ، وربما يريد استمالتى اليه .. ثم يوزنى لأقطع رقبة مولانا عندما يسلمها لى وتصبح تحت رحمة موسى ، أرسلت فى طلب أمى ، فتحت ذراعيها وأرادت أن تضمنى فى أحضانها . قلت ياولية نحن الآن أصحاب جاه ، أهدئى .. هنا سنأكلين اللحم كل يوم ، وتلبسين الحرير والديباج ، بسطت كفيها ، دعت لى ، فى المساء رحت أرقبها وهى تأكل اللحم ، بعد أن صرفت الخدم ، حارت بين المقلى والمحمر ، وأصناف المشموم والفواخيت .. تذكرت أيامى الأولى فى القلعة ، كيف اذا جاءنى الأكل لا أترك أثرا من فرخة أو قطعة من لحمة ، الخبز لم أقربه مدة طويلة ، ولما المتنى بطنى عالجنى كبير الأطباء نفسه ، مرئى من اللحم كبير ، لن يؤاخذنى أحد ، ساعات أقول أن الأكل يكفى حسين ومحمد عبد العزيز واسماعيل وسائر اصحابى فى الحسينية ، اذ أتذكرهم ينبعث فى نفسى

ضيق ، ماولى من أيام يبدو قريبا ، كأن السنين وجه له عينان كبيرتان تحملقان الىّ فى سخرية .. انسان موجود فى مكان لا أعلمه،يد ضخمة تمتد لتلحقنى وترمينى من كل هذا النعيم ، اذا ما رأتنى أمى تقول لى أعطاك الله وأعطاك .. تمتع ياولدى .. تمتع .. آن لى أن استريح ، مرة طلبت منى اكمال نصف دينى ، بسطت يدى ، من أين .. ؟ قالت انها تعرف بنتا مليحة وفقيرة ابنة سقاء ناحية سيدى البيومى ، ما أتكسبه لم يكن يقيم أودى ، ويسد رمقى ، واذا مارأيت امرأة فى الطريق ألهث ، ويسيل ريقى ، لكنى أدوس هذا كله ، ولم أقرب امرأة قط .. »

وفى السوق تعلو نداءات الصبيان مشيرين الى النساء فوق المصاطب ، أنظر ياسيد ، ليس كل ما استدار جوزة ، ولا كل ماستطال موزة ، ولا كل ما أحمر لحمة ، ويتحسس عبد الرازق صدور البنات الصغيرات .. يتأكد من نفوره واستدارته ، كذا نعومة الجلد وتماسك الردف ، وعن لتاجر الرقيق التركى ان يسأله عن السر الذى يجعله يتخير الصغيرات دوما ، وكان قد استوثق من صحبة التاجر ، وصار يسهل له الكثير من شئونه لدى الحكام ، وقال عبد الرازق ، انهن يذكرنه بسنين تمنى لو ناض فيها ، غير انه فى المرة الأخيرة انتابه غضب ، فقد تدافع حوله سفلة القوم ، وصاروا يقدمون له الرقاع ، والصحائف ، ليقضى بعض حاجاتهم .. راحوا يصيحون ، يزعقون ، وبأيديهم فى وجهه يلوحون ، مما حير التاجر التركى ، وأعجزه فهم ذلك .

* * *

« .. هدأتنى أمى ، قالت : أنت فى أعينهم صاحب ثروة وجاه ، عضضت شفتى ، ضممت يدى ، الى متى يلاحقوننى ، عبد الرازق كان ثم .. عبد الرازق أصله و .. وماذنبى .. ؟ لأنى كنت واحدا من أهالى الخط ، أليس الله يعطى من يشاء ويحجب رزقه عمن يشاء .. ؟ تمنيت لو أن الطبيب عنده دواء ، أشربه

فأنسى مامر بى ، لا أسمع الا من يقول ، عبد الرازق ولد جليبا للسلطان ، مقصه ، وموسه ، لم يلامسا غير شعر السلطان ، قمت أروح وأجىء ، أحك ظهرى بيدى ، أتغلل لحيتى بأصابعى ، قالت أمى : لماذا لا تأخذ الحسينية فى حمايتك ؟ نظرت اليها ، قالت : ألم يكن علم الدين الجليبى السابق متحدثا عنها ، تعهد أنت أمام المحتسب عن الحسينية .. مقابل مايريده من مال وتجمع من الخط ما تشاء ، وأهله كلهم تجار موسرون ، نظرت اليها مرة أخرى مضيقا عينى ، ستسدد ماعليك .. ثم تأخذ ما يفيض ، وأنت تعرف اهالى الخط كلهم ، وهكذا تصبح معهم وجها لوجه ، قلت : والله انها لفكرة .. لكن المحتسب لا يمنح الأحياء هكذا لابد من برطيل ، قالت معك ما يكفى أدفع له .. ثم يرجع لك كل ما أنفقت ، تلفحت بعباءتى ، تركت القلعة غارقة فى صهيج الظهيرة .. ووهج الصيف الذى له لون التراب .. سألنى الساعى الى أين ؟ قلت الى متولى حسبة القاهرة ، قاضينا ، وشيخنا ، الزينى بركات بن موسى .

• • •

بدأ المنادى يقرع طبلته منذ تجاوزه باب الفتوح ، يا أهالى الحسينية ، صار علم الدين الرومى غريبا عن الخط ، وليس متحدثا عنه ، ولم يعد فى حمايته ، وعلى كل من لديه مظلمة أو شكوى ، كل من عليه مال متأخر للسلطان وعلى المتخاصمين وأرباب القضايا والمنازعات ، أن يتوجهوا فى كل حالهم ومآلهم الى حامى الخط ، والمتحدث عنه ، وحاميه أمام المحتسب وكرسى السلطنة ، المعلم عبد الرازق جلبى السلطان ، وشيخ الجلبية فى كافة أنحاء بر مصر ..

• • •

« .. أخبرنى الزكيدار أنه عندما شق فى الحسينية اسمعه التجار الكلام المنكى .. وصاروا يتقولون عليه ، اذا كان سيدك نسى أصله وفصله فنحن لا

ننسى .. ونوعدوه ، وهاشوا عليه بعصيهم .. زاطوا عليه فى كلامهم ، أخذتنى رجفة ، أكل قلبى الغيظ ، ارتديت ثيابى ، تحلقت بعمامتى ، ركبت بغلتى ، سألنى الزكيدار عن المقصد ، الى الحسينية ، أبدى جزعا وفزعا ، لم أبال ، صحت فيه فجرى أمامى ، تجاوزت باب النصر ، طلعت على خياشيمى روائح الخى ، انقبض قلبى .. كأن غيرى عاش فيه ، ليس أنا ، مررت على دكان العطار ، رميت السلام .. قام واقفا ، اهتزت سبحته الطويلة .. سلم علىّ ، قدم الى مقعده ، تبسمت فى وجهه ، استغفر الله لم أنسك ياعم محمود ، ارتاح وجه الرجل ، هكذا ناس الحى ، سخطوا على ، ذكرونى بالكلام المنكى لأنى زدت درهما على مجعول الدكان ، لكن بمجرد أن أواجههم ، أكاشفهم ، يخجلون ويتلعثمون ، أما لو واجهنى عالى الحس والصوت .. سأعرفه ، آمر رجالى أن يذهبوا به الى الجب ، أمام محل العطار راح الزكيدار يصيح فى السوق ، « حامى الخط والمتحدث عنه نزل بنفسه ليسمع ويرى حتى لا يدع الفرصة للمشوشين ، وألا يكون لواحد من العباد مظلمة » ، جاؤوا من الحارات والخوخ والأزقة فأنا أعرف كيف تسرى الاخبار هنا ، التفت الى محمود العطار ، الكلام لن يبدأ الا بعد زيارتى لسيدى اليومى ، اشتقت اليه ، حول الجامع رأيت كثيرا من الوجوه التى أعرفها ، هززت رأسى متلطفا ، بدوا فى دهشة عظيمة .. عليهم هيبة ، منذ طلوعى القلعة لم يرونى ، سألتهم عما بهم ، بعد صمت تعالت الأصوات فجأة ، صاح محمود العطار يطلب منهم الاحتشام ، واحترام المقام ، وأن يتكلم واحد عما يريد الكل أن يتحدثوا فيه فقالوا : أنت عارف ياعلم محمود . لقد زاد الفردة درهما وليس لنا طاقة على هذا .. صاحت عجوز ، رجالى طلبوا منها دفع أجرة دكانها مقدما ، هى لا تملك ماتدفعه ، سيطردونها غدا ، زعقت .. لن أرضى هذا ياعمة .. كم الايجار .. قالت نصف أشرفى ، ضربت يدى فى كيسى ، أعطيتها نصف الاشرفى ، ضجت المرأة بالدعاء ، التفت فجأة وصحت .. « الدرهم الزيادة لابد منه لأن المطلوب منى للمحتسب كثير ، لو ملكت المطلوب لشلت عنهم هذا كله ، زعقت .. هل شوش عليكم أحد منذ أخذت الحسينية فى حمايتى ؟ » أطرقوا مقدار درجة ، قال شاب لا أذكره ، المماليك خطفوا شابة من

أمام محمد الخضرى .. ولا يعرف لها خبر ، التفت اليهم ، تكاثر الجمع ، تعاظم العدد ، صحت عليهم . « أعذرونى ياناس ، هؤلاء مماليك مولانا ماذا أقول لهم .. هل أنا عبد الرازق ابن الحسينية أقف قصادهم » . لزموا الصمت ، برغم هذا كله سأكلم الوالى ، وأعرف من هم بالضبط وأين راحوا بها ، ثم قلت : من عندكم خطفت امرأة واحد .. من الأحياء الأخرى هل تعرفون كم .. ؟ وكم من العسائم تنزع من فوق الرؤوس .. وكم من الغلمان المرد يطاردون ، كثير .. كثير .. كثير بإجماعة . انتم فى نعمة . سكتوا هنيهة .. وقالوا انهم يلاقون صعوبة عظمى فى مقابلتى ، عندئذ صحت ، أحضروا الى زين الدين الجزار ، وكان شابا عفيا قويا ، حسه طالع دائما فى الطريق ، يرهبه الكثير ، سلم على مترددا .. قلت : هل يعترض واحد على هذا ؟ سكتوا .. أنت من اليوم مسئول أمامى وأمام هؤلاء والأهم من هذا كله أمام الله رب العالمين ان توصل الى كل الشكاوى والمظالم ، اعذرونى .. كما تعرفون أنا جلبى السلطان ومولانا لا يخلو مجلسه منى ، بدا على وجوههم الرهبة ، زين الجزار مفتوح الفم ، لا يصدق ماسمعه ، اقترب منى الزكيدار ، همس . قلت : لا تلوموني يا أهلى بعد قليل يصحو مولانا ولابد من طلوعى القلعة ، نزل الصمت ، اندفع أمامى زين الدين يفسح الطريق منافسا الزكيدار نفسه ، امتطيت بغلتى،فجأة انطلقت زغرودة من الطيقان ، ابتسمت ، تكاثف جميع النساء والحريم والغلمان أمام باب الفتوح ، استدار زين الدين ، زعق عليهم ، أن يرجعوا ، عاد يجرى بجوارى .. ضربت يدى فى كيسى ونفحته عشرة دنانير ليشترى لنفسه ثيابا تليق برجال ، أمرته ان يطلع القلعة فى الصباح لنتكلم ، تركته مذهولا ، سائر فتوات القاهرة يرهبونه ، وغدا يطلع عندى وأرتب معه الأمور كلها ، فلا أقلق فى صحو أو منام .

• • •

وكان الأمير كرتباى شديد الحنق على الأمير شاربك الأعور ، فالثانى أكثر قربا منه لدى السلطان ، وحصانه على حصان السلطان نفسه .. ورأى كرتباى أن

يتخلص منه .. ويردبه موارد التهلكة ، وبعد طول تفكير ، رأى له أن يتكلم مع عبد الرازق الجلبى ، فقد علا نجمه .. وسطع سعده ، وقرب وعده ، وصار السلطان يوكله فى كثير من الأمور يحل فيها ويربط ، حتى أن أرباب الحاجات ما قصدوا الا بابه .

• • •

« .. وقد أصغيت اليه ، العطر فى الهواء .. حلو ، النافورة ترمى مايها الى أعلى ، لا صوت من الطريق عندنا ، وأعمدة الرخام السماق تقف باردة تحمل السقف المزخرف الجميل بحشو الخشب ، مما ليس له مثيل ولا فى القلعة ، عندما سألته عن هذا الشمعدان الرائع ، بدا مبهوتا ، فهو يحادثنى فى عظائم الأمور ، وأنا أبدى اهتمامى بشىء حقير الشأن ، ارتاع وخاف .. ربما ظن أننى سأبلغ شاربك عندئذ ينتكس وينتهى ، رفعت نظرى فوجدته شاخصا الى ، عندئذ قلت : فجأة ، ما الذى أنا له من هذا .. ؟ قال لك ماتطلب ، أعطيك من الدنانير والجوارى ماتشتهى ، ضحك ضحكة خفيفة ، فلم يلن وجهى ، قلت فى صوت خفيض ، أكون متوليا لحسبة القاهرة ، أصفر وجهه ، نزلت على عينيه حيرة ، قال هذا من السلطان ، أشرت بأصبعى ، ترسل أعوانك فيضطرب الحال فى السوق .. وتشيع عن الزينى ما يجعلك تطلع الى القلعة وتخبر السلطان أن حال المسلمين قد اضطرب وضاعت حقوقهم .. ولا مفر من عزل الزينى ، يسألك من يحل مكانه .. تقول لا يوجد غير الجلبى .. فالناس تلهج بذكره وطيب سيرته ، ولك أن تعلق جثة شاربك الأعور ثلاثة أيام كاملة على باب زويلة .

• • •

ونزل فوق الناس صمت حتى لتحس حركة الجنين فى بطن أمه . تحيروا فى أمور الزمان ، كيف تلتف المشنقة حول عنق هذا الذى قارب ذا القرنين فى

جبروته وعنفوانه ، هاهو يعلق رأسه كأى اعرابى مارق ، أو لص سارق ، بينما يطوف المنادون فى أحياء القاهرة (المدينة) يصيحون على اللئيم الذى أعد ملعوبا خفيا ليخلع حامى الحرمين وسيد البحرين من فوق عرشه ، لكن اللئيم شاربك أخذ قبل أن يأخذ .

* * *

« .. وقال ان الناس تحبنى وتثق فى ، والوالى لا يجد غيرى أتولى الحسبة ، وأضمن أموال السلطنة ، واستقر بأحوال الخلق ، قمت فقبلت الأرض بين يديه ، سالت دموعى ورجوته اعفائى فما أثقل المسئولية وما أفظع المهمة على قلبى ، ويكفينى القيام بواجبى بلا زيادة ولا نقصان ، فما الذى يطمح فيه انسان أكثر من كونه جلبيا للسلطان ، هنا ضرب مولاى يديه ببعضهما .. قال : عجيب .. والله عجيب .. أنت أول من أعرض عليه منصبا فيمتنع ، وحولى يقتتلون ويتصارعون ، ياجلبى .. أنت متولى الحسبة والمتحدث عنها أمامى ، فأنحنيت وقبلت الأرض ، لكن لى رجاء يامولاى .. قال ماهو ؟ قلت : ألا تحرمنى من كونى جلبيا . »

* * *

وهجت ألسنة الناس فى المحلات والأسواق ، ودعوا للمحتسب الجديد ، فقد نزل موكبه تدق أمامه الطبول ، وتنفخ الزمور ، وصار يقف بنفسه ويضع تسعيرة الأجبان .. والسنبوسك ، والبيض ، والخضروات ، وتحدث الناس فى البيوت عن رقة طبعه ، ولين خلقه .. وطول باله فى الاستماع الى الشكاوى حتى عندما صاح الرعاع عليه فى الحسينية ، وانكوا عليه بالكلام الناشف ، فقد ظل هادئا ، لا يرد على اهاناتهم ، ولو شاء لقطع رقابهم .

أخبرنى الأمير أبق أن المدينة لم تهدأ كما هى الآن ، شكرته ، اثنى على ومضى ، هكذا تحاشيت كل مشوش لئيم ، من عنده مظلمة فليقدمها الى نوابى ، لم أغلق أبوابى ، ما يهمهم ؟ ان مايريدون قوله وصل الى ، واذا بت فى مظلمة فالأمل لا ينتهى من عند مائة ، فى المساء طلعت أعلى طباق بالقلعة ، الزبدة على أشدها ، الجو به وخم ، السماء زرقاء . فالليل لم يوغل بعد ، زعق الحراس بالتحية ، رحت وجئت فوق السطح ، أرنو الى القباب والمآذن ، والغبار ، كل هذا أنا متحدث عنه ، قرضت طرف عباءتى ، سمعت حس رجل ورائى ، الأمير كرتباى الوالى .. سلم علىّ ،وقال إن حسن مسيرتى وسياستى جعلتا الكل راضيا عنى ، صحيح هناك بعض المؤغرين يروحون اليه ويتمون على .. سكت .. ثم قال : من ثم لك ثم عليك .. أومأت برأسى ولم أرد ، لعب الفأر فى عبى ، وراءه أمر ما ، بعد سكوت دام درجة ، قال : ان الجمع بين وظيفتى المحتسب والجلبى فيه ارهاق على ، الحسبة لها مشاغلها التى لاتعد ولاتحصى . ضيقت عينى ، أبطأت عليه فى الحديث .. قال لو أعفانى السلطان من وظيفتى كجلبى ، لكان هذا أحسن ، فصحت فجأة ، والله هذا ماكنت أفكر فيه ، أبدى بشرا وتهللا ، قال أطلب منه ذلك ، قلت سأفعل لتوى ، وبعد أن حلقت ذقن السلطان ، قلت أن الأمير كرتباى طلب منى كذا وكذا وأنتى أشك فى مقاصده الجسام .. ضاقت عينا مولاى ، ارتخت جفونه ، علامة الغضب العظيم ، قال ماذا تظن ياجلبى ؟ قلت استعيذ بالله فلست تماما ، صاح على صيحة مهولة رجتنى فأنحنيت أقبل الأرض ، قلت لا تؤاخذنى مولاى ربما أرادوا ابعادى واحضار جلبى لا نعرفه ربما .. صاح السلطان .. لا تكمل ياجلبى .. امش ياجلبى ، فى المساء جاءنى قاصد يخبرنى ان كرتباى قطعوا رأسه فى الصباح ، وأن مولاى يطلبنى بعد العشاء لأمر خطير ، قلت سمعت وأطعت ، عندما أنصرف .. ذهبت الى أمى وقلت أتعرفين معنى هذا ؟ نظرت الى مذهولة ، دخلت غرفتى .. أرخيت الستائر ، انطلقت فى فرحة ، ضربت الجدار بيدى ، رميت ثيابى على الوسائد وصرت أدور فى الحجرة طالعا نازلا ، لا أدرى ماأفعله .. »

غريب الحديث فى الكلام عن على بن الكسيح

وقبل المغيب ، نزل أمير مقدم ألف من القلعة ، وعبر ميدان الرميلة فى موكب له ضجة ، واتجه الى بيت الأمير المقرى حيث يقيم قصاد ملك البنادقة . ينتظرون من عشرة أيام ، اللحظة التى تحين فيها مقابلة السلطان . وقد أركبهم الأمير ، وعاد بهم فى موكب عظيم ، وكان القصاد خمسة يرتدون الثياب الزاهية ، شعورهم طويلة كالحريم ، وجوههم حمراء ، وفى أثناء هذا كان الأمير يشبك البزدارى يتأمل السلطان برقة .. ويكثر من الدوران حوله ، ولحظ السلطان هذا ، فهو ذكى ، لا تفوته شاردة ولا واردة ، قال له ماذا بك يابزدارى ؟ قال لا تؤاخذنى يامولاى والله لا أجرؤ .. نثر مولانا فيه ، ارتجف الرجل فى ثيابه ، وأشار الى ذقن مولانا ، قال انها هائشة ، غير مرتبة ، ليست مليحة ، ولو رآها القصاد الأجانب لصارت فضيحة ، تحسسها مولانا وخللها بأصابعه .. عجيب .. عجيب .. عبد الرازق حلقها لى منذ ساعة .. أرخى الأمير يشبك عينيه .. قال : يامولاى يد عبد الرازق تلمست وماعاد يفيق الى خدمتك . صاح السلطان .. كفى .. كفى .. صار صوته هادراً ! فيه غضب لو سلط على مدينة لقلب أعاليها أسافلها .. ارتعش الأمير يشبك ، وقبل الأرض . صاح السلطان .. لن أقابل قصاد البنادقة .

١٩٦٩

هذا مخطوط « غريب الحديث فى الكلام عن علّى بن الكسيح

« ويتضمن أخبار الشيخ على سنان الدين بن الكسيح ، صاحب الحدبة فى صدره ، والحدبة فى ظهره ، (برغم هذا كان وجهه مليحا ، حلو الصورة ، أشيب اللحية صغيرها) . وكان يرى دائما محمولا فوق ظهر غلام اسمه ركين ، لم يسمع له صوت ، ولم يفتح عينيه الا ليرى بهما الطريق ، قيل إن الأمير ملكتمر أعطاه له ، وملكتمر هو أول من أتخذ من الشيخ على ندمًا وعرفه طريق الأمراء ، اما العوام ، رجال ونساء ، فكلهم يعرفونه . كان باستطاعته دخول أى بيت أو دكان فى أى وقت ، ولو طلب ما شاء من أموال فلا يجد من يبخل عليه ، قيل فى سبب هذا انه الخوف منه ، لكنهم رددوا ايضا انه خير وبركة ، فقد لهجت الألسن كثيرا بمناقبه ومآثره ، مما حير العقول وأربك الألباب ، وسبحانك ايها المنان الوهاب »

* * *

قال تعالى « .. ان ربك لبالمرصاد .. »
صدق الله العظيم

« على مايذكر المصلون فى جامع قلاوون ، انها المرة الأولى التى يجىء فيها الشيخ على هنا ، النهار كله يجول الأسواق ، يجلس عند التجار ، يمازح الناس ، انسال صوت الشيخ محب مرتلا تواشيحه ، القلوب تخفق فى الصدور كأفراخ الحمام ، ضوء النهار به صفرة تفقم شيئا فشيئا ، بدا الشيخ على متأثرا ، مغمض العينين ،

لابد أن الله يقبل صلاته ، لا يقدر على ركوع أو سجود ، استغفر البعض ربه اذ تنبها لانفسهم يختلسون النظر الى الشيخ على ، من فيهما يقرأ الفاتحة ، من يبسمل ، هل بسملة الغلام تنوب عن بسملة الشيخ . قبل ان الشيخ على قد افتى فى هذا رجلا صالحا معمرا من الهند عارفا بالأصول ، وأجاز له هذا ، فجأة صاح صوته غليظ ، عظيم حتى لتحار ، أيصدر من جسمه الضئيل أم من غيره ؟ ياشيخ محب أشجانى والله صوتك ، همس الرجل الورع بخجل ، بارك الله فيك ، بدا وجه الشيخ على مستكينا هزيلا ترثى له القلوب الجامدة ، كثيرون يدعونه عندهم ، يزور مرضاهم ، يكتب لهم الأحجبة ، وقيل ان التى لاتحمل لو رأت وجهه لحملت من ساعتها ، قال بأسى عظيم : وددت لو أنى صحيح ومعاق لخدمت المصلين ، قال محب .. عافاك الله ، عافاك ، همس واحد من الحضور ، كلامك جرح قلبنا ياشيخ محب عندما قلت الطف بنا فيما جرت به المقادير ، صاح الشيخ على وخيل للحضور ان الغلام اهتز جسمه ، بالضبط ، بالضبط ، انخفض حسه فجأة ، فى كل قلب من الجروح ماينكأها قولك يامحب ، اشفق الناس عليه ، تخيل كل منهم نفسه مكانه ، حدبة فى ظهره ، طلوع فى صدره ، ربنا اعطاه فمنحه غلاما يطوف به المدينة ، لو كان فقيرا لمات على الطريق أجرب مهملا ، قام تاجر فراء ، قبل يد الشيخ محب ، طلب من الشيخ على أن يدعو له ، لابد من ذهابه قبل صلاة العشاء ، المماليك ناحيته ينزلون من القلعة ، يقطعون الطريق على الخلق ، صاح الشيخ على ، لا حول ولا قوة ، قال عجوز من المصلين ، سبب الاضطراب فى هذه النواحى وقوع الوحشة بين الأمير طاز شاد العمائر ، والأمير آروس منكلى بغا ، قال آخر ، كل منهما مترصد للآخر انسال حزن رقراق كحد الموسى فى الهواء ، حيث اصوات من بعيد ، كأن الجامع فيه مخلوقات من عالم غريب ، ترقب تسمع رأس الشيخ على مال حتى لامس ظهر الغلام كأنه ينام ، يعرف الحضور انه متيقظ منتبه فجأة ،استعاذ بالله ، والله حرام ، والله حرام ، لم يعرف الناس أى شىء يقصد بالضبط ، امنوا كلامه ، زعق فجأة حتى اهتز جسم الغلام ، هذه ساعة دعاء مستجاب ، اطلبوا شيئا من الله ، فصرخ الجميع بصوت يخلع الجنين من بطن أمه ، اللهم ارحمنا واجعلنا فى

زمرة الآمنين .. فبكى محب وطال دمعه ..

• • •

« الأمير طاز شاد العمائر ، اصله من مماليك طشتمر الساقى ، فى الفترة الأخيرة اصبح متين البنيان ، يرهبه الشجاع والجبان ، استفحل أمره ، واستطال خيره ، وعظم خطره فأرتعب منه آروس منكلى بغا — سيأتى ذكر هذا — كان يكره من يعانده ، وحشا ، سفاكا للدماء ، وهو صاحب الواقعة الشهيرة والفضيحة الأخيرة مع الست التى كانت تسوس الخيل ، نقول بلا كثرة كلام ان الأمير طاز حدث فقال :

« .. جاءنى الخدام ، أخبرونى انه بالأبواب ، خطا الغلام المتين الى داخل القاعة ، قلت أهلا بمن لا يهدأ قلبه ولاينام ، فى مرة سألت عليا ، الا يرغى بما يسمع ، أخبرنى انه الى الحائط أقرب ، وبطوب الجدران أشبه ، ارتاح قلبى ، لولاك لما عرفت تدبير حالى ومالى ، فى هذه الليلة البعيدة داخلنى شك خرم ضلوعى ، تقرب منى آروس فدعانى للعشاء ، رحت ، كان السماط مهولا ، فوجئت بالغلام وسط الحضور مطأطأ الرأس ، يبدو وجه الشيخ مرة من يمين كتفه ، ومرة من يساره ، أخذت ، تجاهلنى حتى أن الغلام لم يقف به لتحيتى ، هز رأسه الصغير المثقل بعمامته ، يغيظنى ، وقفت اللقمة فى حلقى ، يضحك مع آروس ، يمازحه ، يقولون ، اذا وجد الشيخ على فى جلسة ، فهو المدير للحديث وماسك دفته ، يضحك الحزين ، ألم يكن نديما للاتابك ، رجعت بيتى وأرسلت اليه ، لم يأتنى ، اسرجت خيلى وذهبت اليه ، دخلت عليه ، ما الذى جرى ياشيخ على ، تخامر مع عدوى علىّ ، لم أر الغلام ، الشيخ ملقى على الفراش ، بدا صغيرا ضئيلا ، استغفرت ربى فهذه خلقته ، طاف بى خاطر خبيث ، كيف يقضى حاجته فى الحمام ، أيبول على ظهر الغلام أم ؟؟ غاظتنى اجابته الباردة ، ماذا جرى لك ، قلت أنت الوحيد الذى أثق به ، ثم أراك تخونى

عند آروس ، اغمض يومها عينيه ، لم يرد ، قلت انى خارج لكن سيدركك من آروس أذى عظيما ، اخرج باطاز ، بخت فى جسمى ، يقلعنى ثيابى ، تمنيت لو قال .. ابق ، عنده من الكلام ما يقلب به الدنيا على ، لو ذكته ، لا أدرى ماذا سيفعله غلامه الذى لم أره ، قلت : اهانت عليك عشرتى ؟ عيناه مغمضتان ، أنا لا أرضى بمصاحبة أغبياء ، قرضت اسنانى ، كلما وقع أمر عظيم الشأن ، يسكت ، ثم يجود بما عنده ، الصمت ، الليل ، لو أنفجر ما بصدرى لماجت القاهرة ، غلت ، انقلبت،قال فجأة ، آروس يروى عنك أمورا جساما باطاز ، ليست عادتك ياشيخ على . تكلمت بسرعة ، انتقلت الى جواره ، استعاذ الشيخ بربه ، لعن كل وشاء نميم ، تمم بقوله الكريم : « الم يعلموا أن الله سرهم ونجواهم وان الله علام الغيوب » صدق الله العظيم ، بعد صمت وخزتنى فيه ابر . قال ، طلع آروس اللعين الى الأتابيك وأفضى اليه ماهو مشين ، أنا طاز شاد العمائر ، أدخل عند حريمى ، انيطح على وجهى ، آمرهن بضربى حتى يغمى علىّ عند ذهابى الى الجامع الجديد الذى ابنيه ، الأدهى والألعن ، مانزلزل الأرض منه ، يأتى بالمصائب ، هل قلت عليه هذا ، من أين لى معرفة ان كان الاتابيك فحلا مع حريمه أو لاحول له ولاقوة ، هز على رأسه ، قال ، والله خجلت من قول هذا لكم ، استطال الصمت ، صار له ضجيج ، قمت ، رحت ، جئت ، قعدت ، أطلع من ساعتى الى الاتابيك أحط فى آروس ، أعجنه عنده ، آه ياشيخ على ، سكوتك يحيرنى ، مرة عرضت عليه مالا ، صاح وماج ، لطم الخدين ، شق قفطانه ، قال انه لايبتغى الا فعل المروءة ، حبه لى ما يدفعه الى هذا ، فى هذه الليلة البعيدة لا أنسى ماقاله لى ، من مصلحتى ان قلت له خذ منى ارضا باعلى أبى ، حيرنى ، يستوثق منه آروس ، يفضى اليه سره وخبيه ، لو أعرف طلبه ، أستريح ، لولاه لطاحت رأسى من زمن ، ثم أى شخص مثله يمكنه الدخول الى أى مكان شاء ، فى أى زمن ، أى وقت ، يحكى ، يسمع ، لابد ان الله أوقع محبتى فى قلبه لأنه يشاء سعدى وطلوع نجمى ، فجأة قام الغلام ، يحس الرغبة فى البدن اللصيق به يأتيها بدلا منه ، استغفرك ربى ، ما الذى فعلته لآروس ، والله آخذه

قبل أن يأخذنى .. »

• • •

« فى يوم الأربعاء عاشر شهر رجب ، توجه الشيخ على محمولا فوق ظهر ركين الى بيت الأمير آروس لأن الأخير استدعاه وألح فى طلبه » يقول الشيخ على :

« اغمضت عينى ، احطت صدر الغلام بذراعى ، سألنى الأمير آروس ، هل تنعس ياشيخ على ، بصوت خفيض قلت .. معك .. معك ياآروس ، فى الرميلة عند عبوره مرة صاح عليه أحد العوام ، ارفع عنا مكوسك يا آروس . ماكان منه الا انه أمر بتوسيطه عند باب الوزير ، لفظ آروس ولم يقرنه بكلمة . « ياأمير » ، اقول له ما أشاء ، اطمئنه ، أحييه ، أهدئه ، فى المغيب خرجت من جامع الأقمر ، وقف الغلام جامدا كالحديد ، همست ، الى سوق الشوائين ، الطريق مظلم ، ماقبل الليل ، لا يلتفت أحد ناحيتى ، تعودونى ، ثم انى لا أبالى ، نساء محجبات ، خيول يركبها غلمان مزهوون ، تعاظم الزحام . أحكمت ذراعى حول ركين ، وسط الخلائق رأيت رجلين طوالا عظام القامة ، يرتدى أحدهما ملوطة ، والآخر قباء بأكمام طوال ، كانا طويلين جدا عريضين جدا ، توقف ركين أمامهما ، أطلت النظر اليهما ، اثنان ، رجلان ، مجرد رجلين ، هل سأل واحد فى السوق ما وراءهما ، حكاية كل منهما ، ربما هذا من عرب الشام ، ربما الآخر مغربى ، لصان ، ربما سارقان ، حملقا الىّ ، بخوف ، رهبة ، دهشة ، قال لهما الوقوف ، الشيخ كله بركة ، لم أرمش بعين ، حملقت اليهما صامتا حتى سرى الى خوفهما وقشعريرة جسديهما.آه من أيام الزحام ، انظر الوجوه فى الطرقات هذا رأس مستدير ، هذه كالشمامةعيون ، أنوف ، ماوراء اصحابها ؟ اتمنى لو أوقف جميع الرجال والنساء فى شارع قصبة القاهرة صفا واحدا بل البلدة كلها ، الرجال ، النساء ، ثم الأطفال ، أطوف عليهم ، اسأل كلا منهم عن حاله وماله ، خنافاته ، مصالحاته ، أكله ، شربه ، نومه ، تفاصيل حياته مع امرأته ، كيف

تناديه ؟؟ حالهما لحظة المناغشة ، احيانا يهيج فى الخاطر ، اطلع مئذنة فلاوون ، الظلال من أعلى رمادية ، الارتفاع شاهق ساحق ، البيوت سجادة ، لو رميت طوبة فى الفراغ ، تسقط على أى بيت ؟ أشير على أى ربع ، قصر ، من يسكنه ، أين من ؟ امه من ؟ اسمها ، عندما كنت صغيرا لا أقدر على اللعب مع العيال ، بعد حفظنا وتلاوتنا آيات القرآن ، طوال اليوم أشغل نفسى بمعرفة أسماء أمهاتهم ، هذا زينب ، الآخر بخيته ، ميروكة ، اذ يقترب الصبى منهم الى ، يهددنى ، يضايقنى ، أخوفه بافشاء اسم أمه ، يبتعد ، اذ أقعد بجوار الغلام منهم ، أردد فى عقلى ، اسم امك فلانة ، أى بيت أدخله ، ينظر الحريم الى ، اتأمل اجسامهن الحلوة ، كيف تبدو من الداخل ، أمن المعقول ان هذه الحلاوة كلها تستلقى كخرقة تحت رجل كالفحل يمور ويخور ، هذا من شقاوة الصبا ، وسالف الأزمان ، قال آروس ، ما رأيك يامولانا ، فتحت عينى بطيئا ، آروس ، لو أعرف مافى مخك الآن ، هذه اللحظة بالتمام ، أفلتت وأصبحت كان ، اطلت الحملقة فيه ، أرخ الطرف عنى ، كررت ، أحك مرة ثانية ، بعد تردد قال انه رأى فى المنام طاز يجلس بين قوم فى واد فسيح ، يرتدون جلاليب بيضاء ، وجوههم مهيبة ، لحاهم عظيمة ، يقف طاز بينهم يسبنى سبا فاحشا ، وراح آروس ثم جاء ، قصير ، متين البنيان أنيق الثياب ، سألنى رأيى فى الحلم ، قلت والله عجيب ، لو كلمته بسرعة ، أشبعت ظمأه ، يبدو قولى غير ذى قيمة ، يطيب على جمر قلقه ، ثم اطفىء ناره قطرة .. قطرة .. ايضا ، أشعلها ، أوهجها ، زعقت فجأة انهد الصمت ، .. «ياكريم » .. اهتزت الآذان ، رحت أرقبه بعد ان تدارك نفسه من فزع ، بين الجمع يطلع حسى فتلتفت الأعناق وتتخلع القلوب ، تكلمت بصوت عال ، ثابت كوتر ، لا يهتز ، لا يرقه حلم ، لا يخشه غضب ، الرؤية صحيحة ياآروس ، انت رجل صالح تقى . كل ماجاء بمنامك صحيح ، قفز الى جانبى ، اقترب منى حتى كاد يصدم « ركين » ، دار حوله ، لامسنى ، صاح منزعجا ، أحك ، فسر ياشيخ على لا أحرق الله لك قلبا على غال ، تأملته ، آروس منكلى بغا ، يبدو أمام السلاطين فحلا جسورا ، لو يراه العامة الآن لتناقلوا وصفه مثات الأعوام ، طلبت المغفرة فأقسم لى برأس

أبيه ان أتكلم ، نظر الى الغلام ، ابتسمت : ينطق الجماد ولا يتحرك فم هذا ، عدت الى الصوت الرتيب : مارأيته فى المنام قاله عنك طاز باز شاد العمائر بالحرف الواحد ، زعق حتى كادت لحيته تنخلع من وجهه ، لم أتوقف فى الحديث: وقال طاز انك تخفى ذهبا فى سرياقوس ، أقسم ان يرافعك وينتزع منك مائتى الف دينار ذهبا خالصا.أمهلت صوتى ، تأملته ، دفعت رأس ركين حتى أرى وجهه المفزوع ، اذن ما سمعته عن أموالك المدفونة فى سرياقوس صحيح ، ربما فاقت أموال طاز المخفية فى منية أبن خصيب ، كله من دم ايتام مساكين عرايا ، تنبه الى اضطراب أمره ، حاول ان يلملم نفسه ، يستدرك فارطه ، قلت:بيهدأ بالك ونرتاح روحك يا آروس . قام ركين مرة واحدة ، ضعت ياآروس ، سمعت همسك ، ارتجاف قلبك.عض شفته ، بلل لسانه تخلل بأصابعه لحيته ، قال اطلب لنا المغفرة ياشيخنا ، قطبت الجبين ، كرر كالبكاء ، ادع لنا ياشيخ على ، اغمضت عينى ، بسطت كفى على قدر ما يمكننى ، فانطلق ركين بسرعة حتى لفحنى هواء غض قوى .

• • •

« بسم الله الرحمن الرحيم »

قال تعالى « وان الله علام الغيوب » ، قال رنى .. « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » .. وقال رسول الله ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » أما مولانا عمرو بن العاص فحدث « الكلام كالدواء ، ان أكثرت منه فعل وان أقللت منه نفع » .. أما بعد

من الشيخ على بن الكسيح الى أمير كبير ، أتاينك العسكر ، فلما أقعدنا مرض غلامنا ركين ، اضطررنا الى الانزواء ، وفى دارنا البقاء ، فلم نقدر على الطلوع الى القلعة ، ولما كانت الأحوال مضطربة ، والخلق فى هجاج ، وبين آروس

وطاز وقعة وأرسلت لنا مرسالكم الأمين تطلب الاطلاع على الأحداث قبل فوات الأوان وشدة البأس ، فانتهزنا فسحة من وقت ، سنحت لنا اذ يتكاثر الزوار علينا ، من خاص وعام ، يسألون عن احتجابنا وسر انزوائنا،هذا عطار غبت عنه يوما فسعى الى ، وذاك جزار لم أقل له السلام كعادتى كل صباح فترك دكانه فى حراسة جاره وجاءنى ، كنت صحيحا غير ان السؤال عنى ، مع ان غلامى هو المريض ، فى خلواتى أدخل اليه لم أهمله ، أوصيت به ثلاثة حكماء ، أقول ولا أفوتكم فى كلام ، ان المدينة كلها أصبحت عندى بالخاص والعام ، لهذا ارسلنا لكم مايلى من نبذ وشتات ، لعلكم تجدون فيها بعضا مما فات ، تجلو عنكم ما غمض ومات ، ولا أطلب الثواب الا من الهى رب العرش والسموات » نقول ..

• فى يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى زار منطاش الجمدار بيت طاز وأهداه لفافة من ثياب ، أربعين ذراع قماش اصفر طيلسان ، ورطلى عنبر ، وتمورا عراقية، وأوزاق اقفاص ، وهذه بوادر وقوع اقتراب بينهما .. بعدما عرف عنهما ان الواحد لا يطيق صاحبه ..

• فى الخميس نفسه خرجت خوند زوجة اصلم ، معها امرأة ابى بكر بن أرغون الاستادارا ، وبنات أرنبغا نائب الكرك ، وخرجن الى ظاهر القاهرة ، وقضين وقتا كله متعة فى قبة النصر ، وقيل ان الغوانى رقصن عندهن بالشبابة السلطانية .. أما الأكل فكان مهولا ، عشرون رأس غنم ، وسبعون فرخ طير ، وعشرون صينية بالمرق ، وسبعون آنية لحم نصفها محمر والآخر مقلى ، أما الفاكهة فأصناف ، الى جانب النقل والمشموم ، ولم أعرف من الذى انفق على هذا كله ..

قال ارقطاى المملوك ان هدومكم يوم لعب الكرة كانت مضحكة ، وان القصاد الأجانب والشوام تحدثوا فى هذا ، قال — الله اعلم فالكلام الآتى لست واثقا منه — انكم بالغتم فى هز اكتافكم وانتم فوق السرج

المذهب ، وانكم ما فعلتم هذا الا لاظهار عظمة زائفة ، (اللفظ الأخير أنا متحقق منه) .

• .. أكثر الأوباش ، والشلاق من الأعوام فى الكلام ، لأن المماليك خطفوا امرأة بيضاء حلوة يقال انها ابنة عجوز يملك بغلا يشيل عليه الأحمال .

• ..بالغ الفقيه محب من ترديد « الطف بنا فيما جرت به المقادير » حتى تعاظم الجمع حوله ، وكثر كلامه ، وأمره مفروط على آخره وسط الناس .

• .. اشترى بيبرس الأحمدى عشر جوارى صغار ، قيل ان واحدة منهن لا يوجد مثيلها ، وأشيع انه يأتيهن كالغلمان (أنا على ثقة من هذا) . استجير بك يامن خلقت حواء من ضلع آدم ..

• .. فى ليلة الجمعة التى تعود فيها سنجر الجاولى الطلوع الى القرافة الشرقية والمبيت فيها ، سمعت ان قمارى السلاحور يتسلل الى بيت سنجر من الباب الصغير المطل على درب المسمط والمخصص لدخول الثور الذى يدير طاحونة المياه فى البيت . قيل وعلم ذلك عند رئى ، انه يفعل الفاحشة بأمرأة سنجر ، وانها راضية » .

• • •

« تنويه وتنبيه الى القارىء الكريم »

ونجوى الرسالة — بعد ماأوردناه — الكثير من فاحش الأخبار ، ومابهش لحم الناس وأعراضهم ، ويكفى القول انه يتطرق الى ذكر طرق الناس فى اتيان حريمهم ويتبحر فى هذا كالعالم ، غير اننا نخجل من نشر هذا ، وللعلم فالرسالة تقع فى عشرين صفحة كبار ، فمن أراد الاطلاع عليها والتحقق منها فعليه مساءلة كاتب هذه الأخبار ، فنصها كله يوجد عنده ، أما أن تنشر هنا فهذا مالانرضاه

• • •

وفى الليل كاد دماغى ينطلق فيه فرخ جمر ، لم أنم ، الفجر لم الحظه وعندما فتحت عينى رأيت النهار فى الحجرة وركين عند آخر الفراش والحشايا ، تأكد اننى صحوت فسارع الى ، فى الحمام اجلسنى ، رجعنا الحجرة ، لن انزل المدينة ، من أيام والأمان ضائع ، وقعت الوحشة بين الأتابيك وآروس ، فحشر آروس بين غضب الأتابيك ومكائد طاز ، لم يطق صبرا ، جاءنى طاز فقلت انها فرصتك لو خوزقت آروس فى شارع الصليبة فلن يرافعك أحد ، خرج من عندى ، غير انى والليل ظلام دامس كأن الدنيا لم تعرف النهار أبدا ، رثيت لآروس ، تأكدت من كيس طاز له فى الفجر ، يموت آروس ، داخلنى اشفاق عليه ، حزنت من اجله لم أكلم ركين كلمة ، عرف فى الليل طريقنا ، قلت لأروس خذ احمالك ومالك وانتع روحك من هنا ، بكى ، قبلنى ، استودعنى ، خرجت والمدينة تغط فى سبات ، طرقاتها تحمل آثارا من مطر أورث الأرض وحلا ، تعب ركين ، مشى متمهلا ، أبواب الحارات مغلقة . قرب بيرجوان مر بنا رجل يستند ذراعه على كتف امرأة تحمل غلاما ، تمهل ركين ، دنا حولهما ، عرفت انهما كفيفان يزعقان يطلبان حسنة ، فى مثل هذا الوقت ؟ من أى انسان ؟ تعجبت من هذا ، مشينا ، أمام جامع الناصر قلاوون دهمتنى المئذنة برهبتها وضخامتها وسوادها الحى ، كدت أصرخ فيجرى ركين ، مشيت على مهل ، عندما جاءنى ركين ، فى صباح اول يوم يقضيه معى فتحت عينى فوجدته يقف أمام الفراش ، طويلا ، عريضا ، ارتعب قلبى منه والله ، كان صامتا غير انى خفت ، ساقاه جامدتان ، مليئتان بالشعر الكثيف ، صدره عريض كفحل ، خشيت منه على حريمى ، فى الليل ، آخر الليل أحضرهن ، راوية على ظهرها الأطلس العارى ، اتفحص الباقيات ، آمرهن باتخاذ أوضاع معينة . اطيل النظر اليهن ، واذ يجهم الليل فوق قلبى آمرهن بالانصراف ، أصير وحدى فتعلو انفاسى ولا أعرف ان كان النوم

جاءنى أو هجرنى ، فحت بخوفى الى الأمير ملكتمر فضحك واخبرنى ان ركين خصى اصيل لاخوف منه ، زالت الهواجس من عندى غير انى لم ارتح الا بتحققى من هذا بنفسى ، فصرت أشركه معى فى الفرجة وأنا آمن ، بعد خان الخليلى عظم الظلام ، عيون خفية ترمينا بشرارها تطل علينا من بيت بشتاك ، خاطر سريع مر بى ، كم من الرجال يتمن الآن مع حريمهن .. الجدران تخفى وتخفى ، آه لو خلق الله انسانا له عقل يرى فى كل مكان ويسمع مايدور فى أرض قاف ، ضحكت فى سرى ، غير انى رأيت فى عقل صورة طاز فارتعبت ، ربما عرف انى رحت عند آروس ، وأنا بعض محاسيبه ، يكتشف هروب طاز فى الصباح فيعرف اننى السبب ، سارع ركين فى جريه ، العيون تفيق وتتسع ، آروس مأخوذ لا محالة ، طاز أمامه من الوقت فسحة ، ربما صار متحكما فى الأمور ، انخفض ركين رأسه وظهره ، دخلنا من الباب الخلفى الصغير ، قلت وصوتى جامد ثابت : خذ خيلك ياطاز وادرك آروس ، خذه فى الفجر امام بيته أو فى الصباح عند ظاهر القاهرة ، لو عوقت لفاتك بزمن انهيت كلامى ، استدار ركين ، هكذا لا أزيد ، لا أنقص ، فى الظهر جاءتنى الأخبار ان رأس آروس متكل أجتزت وان جثته مرمية فى الجبل حتى تصدق عليه فقير فكفنه وغسله ، ولم اعرف اسم هذا الفقير ، وارجع انه واحد من العوام ، فى المساء رحت ، جثت فى الطرقات ، الدكاكين مغلقة ، الأسواق مقفرة ، غضب أتابيك على العامة ، اخبرنى الشيخ البنان ان بعض الواشين نقلوا بعضا مما يدور على السنة الناس الى أرباب الشأن فغضبوا ، طفش عسكر المماليك فى الخلق ، ضايقوا الناس ، قتلوا منهم الكثير ، شبح الخراب يجلس القرفصاء فوق البيوت والربوع لعنت الوشاية ، صحت زاعقا : كيف لم يعرف من فعل هذا ؟ فهمس الشيخ وهو يتلفت حوله ، طاب لى منظره فرفعت صوتى ، لاحظت رأسه تغرق فى العرق ، لعن أولاد الحرام ، فارقنى بسرعة ، داخلنى قلق ، رنة صوته بها شىء ، دار ركين فى حجرات بيتى ، لن أفارقه كالآخرين ، آه لو افتح الرؤوس وأعرف مابها ، لابد ان الأمر شديد الهول ، والله اطلع الى الأتابيك ، الى السلطان نفسه لأعرف حقيقة الحال ، ماالذى جناه محب حتى يذبح ، وآروس بالحكم الزمان ، من رآه فى جامعه لا يراه

فى رمته بلا كفن ، فقير لم أعرف اسمه بعد تصدق عليه ، دفنه ، الغروب ثقيل ، كدت استدعى راوية البنات لكن خيط ملح مر امتزج بلعابى وروحى فسد نفسى ، لا أطيق البقاء ، ركين قلق حبيس ، العصافير صغيرة تقف عند المشربيات ، أصواتها تضفى حزنا طربا مؤسيا على لون النهار .

﴿ خاتمة ﴾

« وما ان طلع النهار ، حتى علت أصوات ، دمدمة ، بكاء ، عياط ، صياح ، عويل ، استغاثات ، تساءل الشيخ على عن مقصد الجمع ، اسرع ركين اليه ، طلعا السطح ، كاد قلبه يقع عند الحافة ، الطرقات تغص بالعوام ، والفقهاء فوق المآذن يرفعون ايديهم ، يصيحون ، أى هول ؟ أى حدث ؟ ارتجف قلب الشيخ ، ماكان يخشاه وقع ، دار الكلام ، لف ، ثم اقترح بعض اللئام المجىء الى بيته ، يحرقونه ، هذا ما ظنه ورآه ، من يدرى ، ربما طاز هو السبب ، سلط الخلق عليه ، فالشيخ يعرف سره ، علت الدمدمة ، الهياج ، عظم الأمر ، دقت الأكف الباب ، الرؤوس من أسفل ، أيد تعلو ، لا مفك ، لا مخرج ، احتار ركين غير ان الشيخ اضمر النية على عدم مفارقة بيته ، نزل ركين الى القاعة الكبرى ، سيدخلون عليه ، يلقونه هادئا رزينا ، مسكينا ، يحاججهم ، يقنعهم ، سرت رطوبة الشتاء فى عظامه ، أحاطه ركين برداء ياقته فرو اصلى ، لو هرب ، لتأكدوا واقتنعوا ، لم يبق على شفتيه غير مناجاة خالق الدنيا والدين ، اخذه الحزن ، تحسر على روحه حتى كاد يدمع ، ركين هادىء جامد الوجه ، وقع الأقدام فوق السلالم ، فى غرف البيت ، يبحثون عنه ، مابلغت من عجين الأصوات ، مناداة ، طلب للرحمة ، انخلع باب القاعة ، رجال مستوقد فول ، عمال حمام قريب ، بائعو حلوى وسنبوسك ، الشفاه متدلية ، العيون جاحظة ، يوم حشر ، مامر بالشيخ من ايام يجرى أمام عينيه ، زعق حس رجل غليظ : اشفع فينا

يامولانا الشيخ . كأنه صفع ، ماء بارد نزل على قلبه ، تحلقوا حوله ، يتضرعون ، يشكون ، سكت كالجماد ، يكاد يرتجف كفرخ صغير رموه فى النيل ، سكت ، سكت طلب كبير منهم الكف عن الكلام ، تقدم منه ، طفش المسالك فى الخلق فتعطلت الأعمال ، شنقوا وذبحوا فكادت تفنى أمه الاسلام من يوم ، يومان ، قالوا ربما هدأت الحال ، لكن الأشياء أمست فى زوال ، بعد طول صبر وحرقة بال ، لم يلقوا أمامهم غير الشيخ على ، سكت لم ينطق ، قرض شفته باسنانه ، اغمض عينيه ، صاحوا كلهم ، أشفع فينا ، لا يوجد غيرك يقدر على الطلوع اليه . فتح عينيه ، زعق الشيخ على بن الكسيح صاحب ماذكرناه من أخبار وحوادث بصوت زلزل الأصحاء منهم : ياغفور ، يارحيم . اطرقوا خاشعين ، زعق مرة ثانية : يامن لايقدر على جبروته انسان ، تقدم منه ركين ، ارتفعت يده ، قصيرة رفيعة ، افسحوا الطريق ، صاروا يدعون ، يزعقون ، قال واقف سيضربهم بالنعال ، قال ثان ، لا يجرؤ غيره ، زغردت النساء ، أخذه هول الجمع حتى اهتز قلبه ، اهتز الغلام ركين ، طرأ شىء على خطوه،أحسه الشيخ لوح بيده ، زعق مرات ، البيوت ترتعش من شدة الزحام ، والله يوم يشيب منه الجنين فى بطن أمه ، تساءل فى سره ، ما الذى جرى لركين ؟ نظر فى وجهه لحظة ، دموع غزار تجرى من عينيه ، ركين لم يبك مرة واحدة ، ربما أخذه التأثر من شدة الجمع ، صاحت عجوز ، حتى خادمه الأخرس بكى ، اللهم باركنا بالشيخ على ، ارتعش جسد ركين لفظاعة بكائه ، تعثر ، حار الشيخ على ، لفه هدير الأصوات ، يرفع يده فيسكتون ، يزعق ، يارحيم ، يرددون : يارحيم ، فانوا تحت باب الوزير ميدان الرميلة قريب ، الحريم بعضهن يزعق وبعضهن يبكى ، كلما مشينا خطوة انضم الينا الكثير ، غير ان ماحير الشيخ على وأقلق كبده فى مرقده ، عياط الغلام ركين الذى لم يكف بل راح يزيد .

١٩٦٩

* * *

العـــرى

.. لم يلق عقبات ، بعد ان عاين المنطقة ، وموقع العمارة ، وتأمل المبانى الخاصة المجاورة والمحاطة بحدائق تتفاوت فى مساحتها ، وأحصى الدكاكين الأنيقة تحت العمارة ، البقالة ، الفاكهة ، الصيدلية ، اللبان والكواء قال لنفسه ان من يسكن هذه العمارة لا يضطر الى الذهاب بعيدا ، هذه الدكاكين تشكل سوقا متكاملة ، قام بجولة فى الطرق المؤدية الى المبنى ، لو سأله الضابط سيجيبه وكأنه يحفظ المكان عن ظهر قلب ، الشوارع هادئة ، والمكان أنيق ، والمارة قلائل يختلف عن كل المناطق التى ذهب اليها من قبل ، انه يذكر الزاوية الحمراء ، والوايلى ، وتل عارف ، الطرقات قذرة ، والنساء ، امام البيوت يحملن اطفالهن نحاف الرقاب ، العمل هناك صعب وسهل ، لكى يراقب شخصا ما يجب أن يتخفى وان يتسلل الى الناس بحذر ، كأن يقوم بدور بائع متجول ، أو سمكرى ، لكن هذا لا يستغرق وقتا أما هنا فلابد من الانتباه ، لا يكلف بالمهام المتعلقة بمثل هذه الأحياء الراقية ، الا أصحاب الخبرة الطويلة والمشهود لهم بالكفاءة ، فى الأزقة والحوارى يصل بسرعة الى هدفه ، لا شىء يخفى هناك ، لكن كيف يعرف هنا أن الداخل الى هذه العمارة يقصد المدام كوكيتا ؟ يرتفع المبنى ستة عشر طابقا ، فى كل دور أربع شقق ، يسكن فيه وكلاء وزارات ومهندسون ومحامون ، وأطباء وصحفيون لكل منهم عائلة ، قال سيادة الضابط أن الشكاوى تراكمت وتكررت ، ويجب التزام اليقظة ، ومراقبة المترددين على شقة المدام كوكيتا فقط ، قال سيادته ان الاختيار وقع عليه لأنه أكفأ رجال الخدمة السرية فى ادارة حفظ الأداب ، وأقدم المخبرين . رفع يده بالتحية وقتئذ ، لكنه لم يتخيل ان المبنى ضخم هكذا ، استغرقه التفكير فى البحث عن وسيلة أو موقع لرصد المكان حتى نسى

مطالبه التى اعتزم التقدم بها الى الادارة ، كمضاعفة مصاريف المهمة لان الوقت الذى سيقضيه هنا طويل ، والمكان بعيد عن بيته فى الجمالية ، وسيلجأ بالقطع الى استخدام التاكسى ، كما أن الوجبات التى سيضطر الى تناولها هنا مرتفعة الثمن ، ستدوينش الجبن مثلا ، بكم بيبعه هذا البقال ؟ ليس معقولا ان يطلب من امرأته اعداد ستدوينشات له ، ربما لفتت الأنظار اذا أمسكها بيده طوال النهار ، ما استغرقه هو محاولة ايجاد وسيلة لمراقبة مدخل العمارة ، ثم محاولة فرز الداخلين والخارجين ومعرفة المترددين منهم على كوكيتا .

قضى اليوم الأول كله فوق سور الحديقة العامة الأنيقة الفسيحة الممتدة امام المبنى ، ولولا معطف قديم عرف كيف يحافظ عليه مع توالى السنين لما احتمل برد نوفمبر ، غير انه لم يصل الى نتيجة ، كل ماحدده موقع الشقة فى الطابق السادس ، تواجه الفراغ بثلاث شرفات عريضة ، وأربعة نوافذ ، لم ير حيال غسيل ممدودة ، انما نباتات تتسلق الجدران ، خمن انها منبثقة من أصص زرع . فى الشرفة الوسطى فانوس كبير من نحاس قديم ، أما الشرفة الثالثة فمغطاه بستائر برتقالية اللون ، لم يظهر أحد حتى العصر ، حوالى الرابعة والضوء يميل الى اصفرار ظهرت امرأة ، لم يستطع رصد ملامحها ، دخلت قرب الغروب فتحت نافذة ، وأضيئت المصابيح فى الشرفات ، أدرك بصره كلل ، فلم يستطع رؤية تفاصيل . عبر ذهنه خاطر سريع . يوجد الآن من يمارس الجنس خلف هذه النافذة والشرفات ، كم شخص يبدأ الآن فى المبنى كله ، وليس فى شقة المدام كوكيتا وحدها ، فارق سور الحديقة متمهلا ، لا .. لن يصل الى نتيجة بهذه الطريقة ، حضرة الضابط لم يحذره من تجنب اسلوب معين ، له حرية التصرف.المهم ، ان يصل الى هدفه ، عبر الطريق ، توقف أمام المدخل الفسيح ، الباب العريض والجدران المغطاه برخام اسود تتخلله تجزيعات بيضاء شاحبة ، تهب رائحة رطوبة غامضة تنبعث من داخل العمارات الكبيرة التى لا تعرف الغبار أو ضجيج الصغار ، أمام أحد أبواب المصاعد الثلاثة تقف امرأة شابة ترتدى فستانا أزرق ، جميلة ، ثابتة النظرات ، لم يلمح البواب ، صفق ، لم تلتفت اليه المرأة ، ولم

تسأله ، من يقصد ؟ من طرقة طويلة الى اليمين علا صوت خطوات ، انه البواب الذى استمر يراه طوال اليوم ، ومع ذلك سأله أنت البواب ؟ خارج الباب انتحى به جانبا ، قال باختصار وهو يبرز بطاقة صغيرة خضراء اللون : مباحث !

لم تهتز ملامح الرجل ، أومأ برأسه ..

خير ؟؟

قال انه مكلف بحماية أحد السكان ، انه يحتل منصبا هاما ، وحياته مهددة لأسباب ما ، سيرقب الداخلين والخارجين ، كل مايطلبه من عم عبده ان يخبره سراً بأسماء السكان والمترددين على العمارة ، واذا سأله أحدهم عنه فليقل انه أحد الأقارب من البلدة جاء ليبحث عن عمل .

عند هذه النقطة من الحديث اخرج علبة سجائره ، غير أن عم عبده اعتذر لانه لا يدخن ، فى الأيام التالية بدا راضيا ، احتل موقعا لا يحلم به أى مخبر ، لم يضايقه الا صمت عم عبده المحدق الى الدنيا بعينين ضيقتين ، لا يتأثر وجهه بأى انفعال ، ولم يسمع صوته الا اذا تأخر المصعد فى طابق ما ، عندئذ يخبط الباب المعدنى : « اقفل الباب » . الوسيلة الوحيدة لتبادل الحديث معه توجيه الأسئلة ، لم يتأخر أبدا عن الرد ، ولكن عندما أدعى ان ضابطا كبيرا فى المباحث يبعث الى عم عبده بتحياته وشكره لتعاونه الصادق مع الشرطة لم يبد عليه أى اهتمام ولم يعن حتى بالرد ، اضطر الى توجيه بعض أسئلة اليه بمجرد الرغبة فى تبادل الحديث خاصة فى ساعات الظهيرة التى تخف فيها الحركة وتتوقف المصاعد ، وتجىء ، أصوات بعيدة غامضة تزهد من ضيقه وحاجته الى الخدمة غير متاح له التمتع بها ، غير أن ماتوصل اليه اضفى عليه سكينة حتى انه قطع المسافة من مصر الجديدة الى الجمالية مشيا على قدميه ليلتين متعاقبتين بعد توقف المواصلات . لم ينس ان يسأل عم عبده عن المبلغ الذى يحسبه عدد التاكسى عبر هذه المسافة حتى يكتبه فى كشف المصاريف ، خلال أيام قليلة أدرك أن معظم السكان الأصليين ، أوشك على حفظ الملامح ، مواعيد عودة وخروج كل منهم ، خروج الفتيات اللواتى يرتدين البنطلونات الضيقة التى تكشف حدود الملابس

الداخلية ، وقوف احداهن حتى نزول صديقتها الممسكة بمضارب التنس ، رصد الفارق الكبير بين مظهر الفتيات العائدات فى الظهيرة من مدارسهن ومظهرهن عند خروجهن بعد الظهر ، يرتدين بلوزات وجيبات ، ويضعن مساحيق خفيفة ويمشين خفافا مرحات ، هل مثل هؤلاء يعتصرن ويقبلن ويتأوهن ، ايقن بالفارق الكبير بين من رآهن هنا ، أو من تابعهن طوال عمره فى الحوارى والأزقة ، والمساكن الشعبية المكتظة ، خلال هذه الأيام لم تقع عينه على المدام كوكيتا ، لم يسأل عنها حتى لا يستثير شبهة البواب ، اكتفى حتى الآن برؤية بعض المترددين عليها ، ارتبك فى البداية عندما رأى رجلا ثقيل الخطى ، فخم المنظر ، بادى الثراء ، تحيط به هيبة غير منظورة ، لكنه قال لنفسه ، افق الى عقلك ، انت تعمل فى وسط جديد عليك ، رأى ثلاث فتيات انيقات يرتدين البنطلونات لاحظ أن البنطلونات تثير الى حد ما ، أكد عم عبده انهن أقارب المدام كوكيتا ، حوالى الساعة التاسعة عبرت فتاة خمن انها تعمل عند احد السكان ، لم يسأل عم عبده عن الخادمات ، رآها عدة مرات خلال الأيام الماضية ، لم تلفت نظره ، الليلة انتبه الى مرورها البطىء المتمايل على مقربة منه ، ان ثيابها نظيفة ، بلوزة بيضاء لم تخف صدرا سخيا ، يهتز مرددا وقع الخطى ، الارداف متناسقة ، مستديرة لينة ، العينان سوداوان ، الشفتان مثيرتان ، لو رآهما فى طريق عام قبل مجيئه الى هنا لظنها امرأة عاملة أو ربة بيت ، ترتبط صورة الخادمات فى ذهنه بمن عرفهن فى المناطق الفقيرة ، والبنات اللواتى يعصبن رؤوسهن بمناديل يتدلى من اطرافها الخرز والترتر ، ماجعله يدرك انها تعمل فى احد شقق العمارة هيئتها التى تقل بالطبع عن الأخريات . وهذه الحقيبة خضراء اللون المصنوعة من البلاستيك ، رآها معلقة النظر بلوحة الأرقام ، فى لمحة احتوى وقفتها ، تردد لفظ واحد يلخص انطباعه « كالفرس » انشب نظراته بنصفها الأسفل ، لأول مرة تتعلق عيناه بجسد امرأة من العمارة ، حاد ببصره دائما متفاديا السيدات والآنسات ، أم يتحرأ لانها خادمة ؟ أو لشعور غامض بانها خصته بالمرور قريبا منه ، اليست خسارة فى العمل كخادمة ؟ ، تنتقل عيناه فجأة الى عينيها ، يدق قلبه قبضات دم ، فوجىء ، هناك ابتسامة خفية ، ودعاء صامت ، الدعوة

مؤجلة ، يزول تكسر جفنيه وتعبه المضنى كأنه يقف امام حمام دافىء ، ردت التحية بيسر عندما تقدم بسرعة من زوار المصعد ، اضاء السهم ، التفت اليها مبتسما ، (نازل) ، أومأت ، أدركه سرور جديد عليه ، تذكر ماسمعه عن خادمات يقعن فى غرام الباعة ، ومغامراتهن مع الأزواج ، وكيف يترك الزوج امرأته ويتسلل ليلا الى الصالة أو المطبخ ليضاجع خادمة ربما كانت قبيحة ، السر يكمن فى التسلل الليلى ومايجدنه من فنون المتعة .

انه لا ينظر اليها الآن ، انما يعلق بصره بالأرقام المضيئة التى راحت تنطفىء واحدا بعد الآخر وعندما بدت الكابينة لم ير ظل أحد فيها قبل ان يفتح الباب يفسح لها الطريق ، كأن يدا تدفعه الى الدخول ، يلتفت اليها بسرعة ، وداخله رجاء الا يصل احد السكان ليستنشق الشذا وحده .. تقول ردا على نظراته المستفسرة :

المدام كوكيتا ..

ضغط الزرار السادس بقوة ، أجل التفكير فى المفاجأة ، احتفظ بملامحه ثابتة بعد عبور الطابق الثانى شم رائحتها نفاذة قوية تطغى على رائحة المصعد المعدنية ، تذكره نشوة لم تواته منذ سنوات ، عندما كان يستسلم للهزات ، والارتجافات ، والنوبات يستدير اليها ويسأل بصوت مرتجف فتقول :

نعيمة ..

يقول انه قريب عم عبده ، تومىء برأسها :

أعرف

ينظر اليها :

شفتك مرة أو مرتين .. سألت عنك عم عبده ..

عندما خرجت قالت « تصبح على خير » ، عندما نزل وحيدا شد دوار ، حتى العاشرة ليلا لم يظهر عم عبده لم تظهر هى ، كل ماضايقه .. ضغط الزرار السادس عندما قالت انها متجهة الى كوكيتا ، ربما اثار ريبتها . من أين ، ان

يعرف الطابق وهو وافد غريب ، لكن اليس قريب عم عبده ملم بكل شيء . ثم ان مدام كوكيتا معروفة فى العمارة لكثرة المترددين عليها ، حوالى الساعة الحادية توقفت سيارة بيضاء تهادت كسفينة نزل رجل يرتدى عباءة بنية اللون ، وتقدمه السائق ، عندما مرا من امامه قام واقفا . هذه الحركة التلقائية التى يعقبها اداء التحية عند مرور ضابط . قال عم عبده فيما بعد ان الرجل عرفى والأموال لديه بلا عد وانه من معارف كوكيتا ، فى تلك الليلة بدأ المشى فى الواحدة صباحا بعد انقطاع أمله فى نزولها لتشترى حاجة ما ، عند اقترابه من العباسية أدركه أثر منها لاصق بروحه : وقفتها ، استدارتها ، فى نفس الوقت تبلور لديه ما سيقوله لوحدث ورصدت الادارة صعوده مع نعيمة ، سيقول انه فى سبيله الى تجنيدها ، مصدر هام من قلب البيت نفسه ، توقف لحظة،لماذا يتصور هذا كتبير ، أليس هو الواقع ؟ البنت تميل اليه ، لن يخفى شيئا عن حضرة الضابط ، ماجرى سيكتبه مفصلا ، لكنه لن يذكرها فى تقرير الغد حتى يملأ يده منها ، بدا انه شعر بالراحة بعد ان وصل تفكيره الى هذا الحد . بعد ان قطع ثلثى المسافة كان قد استعادها مرات ، تخيل نفسه الى جوارها ، أو ملتصقا بها ، أى نعيم ؟ توقف امام دكان يبيع البسبوسة والقطائر ، أقدم على تناول سلطانية مليئة باللبن الذى تعوم فيه قطع البسبوسة والكنافة المحشوة بالفول السودانى ، تصرف كهذا لا يتم الا عند حدوث مفاجأة سعيدة له كأن يرضى عنه سيادة الضابط أو يوفق فى مهمة ينال بعدها مكافأة ، أو بعد نزوله منتشيا من البيت ، عندئذ يقدر ان ينزه نفسه فيتناول قطعة البسبوسة ، أو يشرب زجاجة بيبسى أو كوب من عصير القصب ، الليلة يدخل الحارة حذرا ، بالوعة المياه متفجرة ، يتدفق منها ماء رمادى اللون ، رائحته كريهة ، يستمر اياما والنساء يقفن امام البيوت ، يتحدثن ، ويحملقن ، ويتطلعن الى كل غريب ، الأطفال يغوصون فى المياه القذرة ، يتراشقون ، يلعبون ، من فضائل سعدية انها لا تشارك النساء ثرثرتهن ، انه يخطو حذرا ، لمبة الفانوس محطمة ، الأطفال لا يدعونها تضيء أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام ثم يشوط أحدهم الكرة فيحطمها ، القادرون فى الحارة يكتبون لشرائها ، غير ان العيال لا يزجرهم أحد . كما ان عمال البلدية لا يجيئون الآن لتسليك البالوعة ، منذ سنوات كانوا

يمرون يوميا ممسكين بالأسياخ والعصى ، يقومون باسكات المياه المتفجرة ، اهالى الحارة يعتقدون ان سلطانه بلا حدود لعمله فى الخدمة السرية ، اذا انقطع التيار الكهربائى يجيئون اليه ، اذا تراكمت الزبالة يطلبون منه ان يكلم البلدية ، عند مروره ببيت الجرجاوى يسمع اناث شخص ما . تعب السكان وأرهاقهم يكاد ان ينضح عبر الجدران،فى العتمة يستدعى العمارة البعيدة ، فى لحظات الغروب يطل السكان من الشرفات الفسيحة المليئة بالراحة ، مرورهم امامه ، تفيدة هانم تتأبط ذراع شكرى بك المدير العام ، يفتح لها باب السيارة وعندئذ تستدير برشاقة وتجلس فى المقعد المجاور له ، وبرغم انحنائها فان فستانها القصير لا ينحسر بوصة واحدة عن ركبتيها،المدام اجلال يخطواتها السريعة واتجاهها الى سيارتها الصغيرة ، لم يمض على زواجها أكثر من أربعة شهور ، والدها اشترى لها الشقة بعدة آلاف من الجنيهات ، أما المهندس زكى مدير احد المكاتب الاستشارية فلا يرجع الا ومعه قفص فاكهة يهرع عم عبده لحمله ، يظل من فمه سيجار بنى اللون ، نفاذ الرائحة ، يقال ان ثمنه خمسة جنيهات أى ثمن كيلو وربع لحمة مشفاه من سعودى الجزار ، اشترى ثلاث شقق وأزال الجدران الفاصلة ، امرأته تصغره بعدة أعوام ، شابة ضئيلة الجسم ، بيضاء ، تمشى بسرعة ولا تلتفت يمينا أو يسارا ، لم يرها الا مرة أو مرتين ، لا تكثر من الخروج .

انه يعبر مدخل البيت ، منذرة يومى النجار مفتوحة ، شخير ، رائحة تراب ، رطوبة وركود ، يتمنى الا تستيقظ سعدية ، يود أن يخلو الى نفسه ، يستعيد نعيمة ، لا يدرى ماذا جرى له مع انه رأى الكثيرات ، اقفاص قديمة،قوالب احذية مهملة ، يتمنى ان يدخل اثناء الهجوم على بيوت البغاء ، سمع بأذنيه اسئلة الضابط الصريحة ، المكشوفة ، دهش لجمال العديدات،لم يتحرك فيه عرق عند رؤيتهن ، لكن .. من يسمح له وهو المخبر الذى عاش عمره كله ينفذ فقط ما يسمع وما يصدر اليه من التوجيهات،عمل دائما فى الأزقة والأماكن النائية ، يقف الساعات الطوال منزويا عند النواصى فى البرد ، المطر،يرقب الأضواء خلف نوافذ البيوت التى يراقبها ، وربما يسمع أصوات الضحكات والـ ، وقد يرى العناق

منعكسا على زجاج النوافذ ، ولا يفعل شيئا أكثر من أن يرصد ، يراقب .. منذ سنوات اصطحب فتاة فى السادسة عشر ليسلمها الى أحد الأقسام ، أمسك يدها والرغبة نائية ، ظلت مطرقة ، نظر اليها ، الى وجهها الأسمر ، وعينيها المستكينتين ، ولم لا ؟ شبت فى جسده جذوة ، لكن .. أين ؟ حاد عن الطريق وغاصا فى شوارع معتمة حتى وصلا الى طريق محاذى لتحويلة مهملة من السكك الحديدية ، دفع بها الى داخل عربة قطار مهجورة ، فزعت قطط أو فئران ، لم يدر ، كل ماقالته « هنا ؟ » زام بصوته عجبيا ، لم يرها بعد ذلك ، لم تظهر فى أى قضية أخرى ، ولم يجرؤ على الاستفسار عن مرساها .. لكن نعيمة ليست منهن ، انها خادمة عند كوكيتا ، هل يلتفت اليها أحد هؤلاء الرجال المنفوخين بالمال والجاه ؟ ، حتى الآن رصد عشر نساء أكد عم عبده انهن يقصدن المدام . كل منهن تحل المعلق الى حبل المشنقة من فرط الحسن والطلاوة لكن ، وماذا بعد .. لايدرى ؟ .. يسد الباب . لا فائدة ، تستيقظ سعدية مع وقع خطاه فوق السلم ، تمد يديها الى كبس النور ، يطلب منها الا تفعل حتى لا توقظ الولدين ، لا يريد رؤيتها ، يخشى لحظات الحنان التى تضفيها عليه . وترديدها عبارات الاشفاق لصعوبة عمله ، ترفع ثوبها . تهرش ساقها ، قملة أو بقة ، العمارة تخلو من هذه الحشرات ، لاشك ، تسأله .. هل تناولت عشاءك ؟ واذا قال لا ستنحنى على الموقد ، تضغط الكباس مرات ، تبذل عدة محاولات حتى ينتظم لهيب الموقد لا .. لا يريد ان يأكل ، تنظر اليه بدهشة وأعياء . قال انه تناول طعامه أول الليل بعد شعوره بجوع مفاجىء ، بسرعة يعلو شخيرها المتقطع ، ستوقظ نفسها بنفسها بعد لحظات ثم تروح فى النوم حتى يطلع الصباح ؟ سيركب الأوتوبيس المخصوص الذى لا يسمح فيه لرجال الشرطة بالمجان ، مثل هذه الخفقة القوية لم تواته منذ سنوات ، قبل ان يوغل فى النوم هز سعدية ، طلب منها ان توقظه مبكرا ... لكنه حتى الثالثة من ظهر اليوم التالى لم ير نعيمة ، هل خرجت فى الصباح ولم تعد ؟ هل انهت كوكيتا خدماتها ، لو صح هذا فما أتعس الحظ وأميل البخت ، جاء الحزين ليفرح فلم يجد مطرحا ، فى الثانية الا ربعا افرغ المصعد ثلاث فتيات ، قالت احداهن انهن سيصلن قبل

موعد الانصراف ، قالت القصيرة انها تخشى الزحام ، ارهف السمع .. ابتعدن ، لم يحاول متابعتهن مع انه علم عند صعودهن انهن متجهات الى كوكيتا ، اين نعيمة؟ ماذا تفعل ؟ هل ترقبه من مكان خفى ، انه يدقق النظر فى الداخلين والخارجين بحثا عن نعيمة ، عندما لفته الوحدة ، ولم يبد لعم عبده أثر صعد الى الطابق الثامن وعلى مهل نزل الى السادس ، أبواب الشقق الأربعة موصدة كأنها لا تؤدى الى شىء فى الحارة ، يمكنه الاصغاء الى همسات جيرانه من غرفته ، ألم يعش لحظة بلحظة تلك الليالى التى تلت زواج يوسف الحداد ومحاولاته المستمرة مع محاسن الحلوة ، الشابة التى راحت تنشج كلما اقترب منها وتصده عنها ، فى آخر ليلة سمعه يقول بغيظ سأشكو الى امك ، فيما تلى ذلك من ليال لم يسمع الا صوت خرير المياه المنسال من الحنفية قرب الفجر عندما يصطدم بقعر الصفيحة الفارغة ، ثم يخفت تدريجيا كلما امتلأت بالماء ، لكنه هنا امام بروج مشيدة يصعب اختراقها بالنظر والاصغاء ، لم يطل وقوفه ، لديه تعليمات مشددة الا يكشف عن شخصيته ، بعد هذا العمر بعد كل مارأى من نساء قاموا بالقبض عليهن هل يجرى وراء خادمة ؟ هز رأسه ، البنت تستحق والله ، هنا نعيمة تعيش فى بيت يوقن من طبيعة مايجرى داخله ، لا يدرى أى شىء خفى يشده ويوثقه ، أوغل الليل والحركة خفت من الطرقات ، تباعد صوت مرور المترو القريب ، منذ لحظات عاد شكرى بك وحيدا ، قال للسائق تعال الى فى الخامسة غدا ، لم تظهر نعيمة حتى اللحظات الأخيرة التى اختفى فيها عند منحنى الحديقة ، شقة كوكيتا غارقة فى الأضواء وكأنها ذهبية فى الليل ، ترى أين تنام نعيمة ؟ ومتى تصحو ؟ وماذا تفعل الآن ؟. غير أن قلبه ابتل بالرضى فى اليوم التالى حوالى الثالثة ظهرا ، رآها كان يولى وجهه الى الطريق عندما استقر المصعد وخرجت منه ، عندما وقفت فى المدخل لفته رائحة غريبة جسدت له تعبه ، وارهاقه ، ورغبته المضنية فى الاستحمام ، والتخلص من رائحة عرقه ، وحلق لحيته على الرغم من حرصه على نعومتها حتى لا يسمع كلمة زجر من أحد الضباط الشبان الجدد الذين يتمسكون بالمظاهر ، ويبدون ملاحظاتهم حول الكبيرة والصغيرة حرصا على تأكيد سلطانهم ، انها تشير اليه ، اليه هو ؟ نعم ، يخطو ، فى ذهنها استعداد

خاص للقائه ، انها اجمل من المرة السابقة ، انها رحبة ، مريحة ، واعدة ، يداه ، فى جيبى معطفه ، ماهذا ؟ انها حركة تصحب تقدمه الى أحد الأوكار ، ربما تلحظها،يشعر بالخيبة بعد أن أخرجهما ، يعقدهما امام صدره ، تقول باختصار حلو مصحوب بتساؤل من الحاجبين ..

أكلت ؟

بسرعة وكأنه يشكو ..

لا ..

تتقدمه الى المصعد ، يتمكن بعينيه من اهتزاز ردفيها ، كالفرس ، تورق داخله الرغبة ، يسألها ، الى أين ؟ تقول بابتسامة وثيقة انه معها . هل رآه أحد عندما أمسكت معصمه ؟ بماذا يفسر ذلك لو سأله أحد الضباط ، لا .. لن ينتظر حتى يقولوا له ، لماذا الصعود مع خادمة كوكيتا ؟ سيكتب كل شيء فى التقرير ، توثيق علاقته بنعيمة من مصلحة التحريات . سيبير الادارة بما سيقدمه من معلومات ، سيثبت انه جدير بالخدمة فى المناطق الراقية ، هذه المرة الأولى التى يخرج فيها الى منطقة كهذه ليست الأخيرة ، كل شيء سيذكره ، أما هذه النظرات الندية والدغدغة التى تسرى تحت جلده فليست معلومات ، انها مشاعر لن يرصدها بشر ولن يرقبها جهاز ، عندما تجلس احداهن للتحقيق ، هل يدون كل منهم مشاعره تجاه المرأة اذا كانت جميلة أو صغيرة ، ثمة خواطر تعبر ذهن كل ضابط وخبير ، لكن لا يذكرها احد فى أوراق . سيعرف من نعيمة اسماء المترددين ، سيبدو هذا مبهرا ، انها تنظر اليه ، لا يدرى .. لكنها تقاطعه بوضع يدها على فمه ، توشك أن تلتصق به لكن ثمة مسافة فاصلة ، تقول هامسة ان المدام نائمة الآن ، كذلك أقاربها ، انها بمفردها انتهزت الفرصة لتنزل اليه ، سيأكلان لقمة معا ، انها المتصرفة فى البيت أثناء غياب أو نوم المدام كوكيتا ، لكن ماترجوه الا يعرف عم عبده بمجيئه ، هز رأسه ، أوشك أن ينسى ماقاله عن قرابته لعم عبده ، تفتح الباب ، الى انفه الذى انهكته رائحة المجارى والعطن تنفذ رائحة عطر خفية تختلط بالظل الظليل ، المدخل فسيح ، فانوس من النحاس

المشغول يهمس بالضوء ، مرآة بيضاوية مذهبة الحواف تستند الى طفلين من الابنوس الأسود ، نبت من ظهر كليهما جناحين ، يعبر الممر الضيق الذى يلى المدخل ، فى أركان الصالة المتباعدة مقاعد فسيحة ، يعبر الهدوء خاطر كاليرق ، بماذا يفسر وجوده داخل البيت لو هوجم البيت الآن ؟ يصغى الى بقايا الأصوات القادمة من الخارج ، يبدو العالم بكل مافيه بعيدا ، هذا أمر صعب الأحتمال لأنه لم يقدم بعد التقارير الكافية . ولأن مأموريته لم تنته بعد ، لم يتصور انه سيرى ما يحيطه الآن ، المدام تنام فى هذا البيت ، لم يرها حتى الآن ، يجتاز ممرا قصيرا يؤدى الى المطبخ ، انه مكان فسيح ، أبيض ، نظيف ، فى الركن الايمن ثلاجة ذات بابين . فوق القيشانى اللامع الصقت صور صغيرة لاطباق طعام افرنجية ، تفتح نعيمة الثلاجة ، ياه ... طعام ، طعام فى اطباق ، طعام فى معلبات ، جبن اصفر ، جبن أبيض ، جبن ملفوف فى ورق معدنى ، صفوف من زجاجات الويسكى ، البراندى ، الجن ، وأنواع أخرى لم يرها بين سائر المضبوطات التى تم الاستيلاء عليها من الملاهى والأوكار ، لمبة حمراء مستديرة تضيء مقدمة فرن البوتجاز ، تفرغ قالب المكرونة المشوى ، تنثر فوقه الجبن الرومى المبشور ، تضع طبق الكوسة ، طبق آخر به أكثر من كيلو لحم مقلى فى السمن ، والمكرونة ، خيار مخلل وباذنجان أسود تقول انها ستشاركه حتى لا يخجل ، على الرغم من انها أكلت منذ قليل ، يسأل عن مذاق الكوسة ، تقول انها بالباشاميل ، انها أكلة المدام المفضلة ، لا تمل منها أبدا . يهز رأسه ، لن يسأل اية اسئلة عن المدام حتى لايثير الشكوك الآن ، لكل شيء وقته ، يتراجع الى الخلف رافعا يديه ، تصحبه الى خارج المطبخ ليغسل يديه ، تغلق باب الحمام يتلفت حوله ، يصلح للنوم وليس لقضاء الحاجة ، الأرض مغطاة بسجاد قصير الوبر . فوق الحوض رف زجاجى عريض ، فوقه علب ، معاجين ، أدوية ، فرش لغسيل الأسنان حوالى أثنى عشرة فرشاة ، زجاجات مختلفة الأحجام ، يغسل يديه بالماء الساخن ، يتكاثف البخار فوق المرآة المعلقة،الغبار ملاصق لوجهه ، لكم ترهقه الساعات الطوال التى يقضيها فى العراء ، يقف ساعات أكثر من جندى المرور ، لا أحد يشعر ، لاأحد يقدر ، واذا ذهب الى الادارة سيجدهم فى بيوتهم ، يغسل وجهه ، الماء فى الحوض

يتحول لونه الى بنى غامق بعد مروره على جلده ، يستدير حوله ، هل من فوطة لتجفيف الوجه ؟ ينصرف بحرية لا تواتى الانسان الا فى مكان مغلق كدورة المياه ، يتناول ورقا من صندوق ملون ، يجفف الماء ، كل شىء ، نظيف هنا ، يخشى ان يقضى حاجته ، لايرى مقبضا لصندوق الطرد ، انه يجلس الآن فى المطبخ ، يتناول الشاى ، تقول انها رأته جدعا أبن حلال ، لفت نظرها من اللحظة الأولى ، عندما عرفت انه قريب عم عبده قررت ان تدعوه ، قالت انها من مصر ، لا تعرف لها بلدة ، نشأت عند المدام ، لا أهل لها الا المدام ، انه يرفع حاجبيه بدهشة قائلا ، انها متقدمة فى العمر ، تضحك ، تعتدل فتبدو طلائع الفخدين ، انها لا تدرى عمر المدام ، لكن من يراها سيجد انها أكثر شبابا منها ، ان شعرها أسود غطيس ، ووجهها ناعم ، وقوامها .. اسم الله ، ماشاء الله ، ان الذين يخطبون ودها بلا حصر ، يهز رأسه والراحة تتمدد داخله ، الطعام جيد ، والهواء معقم ، والبنت تحدث فيه ازيزا خفيا ، يقول انه اثناء وقوفه مكان عم عبده سأله الكثيرون عن المدام .. يبدو ان معارفها كثيرون ، تتراجع نعيمة ضاحكة ، يزداد الأزيز داخله قوة ، تقول ان أحباب المدام بلا حصر وانهم يسدون عين الشمس لو قضى ساعة واحدة بجوارها لرأى الأحباب من الشرق والغرب ، رجال ونساء وبنات ، اساتذة جامعة ، رجال أعمال ، مقاولون ، انه يفتح فمه قليلا فى لهجة نعيمة شىء غامض لا يقدر على الامساك به ، يسألها عن عمل المدام ، تتثنى ، توليه ظهرها ، « كالفرس » تقول انها حبيبة الناس كلهم ، اليس هذا كافيا ؟ يرن الجرس ، رنة واحدة ، يقوم واقفا ، يهرع الدم من قلبه الى شرايينه ، تبتسم نعيمة ، هذه الضحكة الغامضة ، المخيرة ، ام انه مخطىء ، تقول ان هذا ميعاد حسين بك ، تقول انه أحد معارف المدام ، صاحب عدد كبير من التوكيلات التجارية العالمية ، يقضى فى القاهرة أياما معدودة كل شهر ، فى هذه الأيام القليلة يتردد هنا بأنتظام ، يحب امرأة كالقمر ، صحفية بجريدة الى الفول المركزية ، لا يمكنه رؤيتها فى مكان عام ولا يقدر على تأجير شقة وكتابة عقد بأسمه لانه متزوج ، تستضيفهما المدام ، يهز رأسه ، وهل يجىء كل أقارب المدام مع معارفهن ؟ ترفع حاجبا وتخفض الآخر ، بالضبط .. أفهمتها لوحدك ؟ تخرج ،

بصمتى لا يسمع أى هسيس ، لكن احساسا خفيا لديه ينبئه بان شخصا دخل البيت ، تعود نعيمة ، يتقدمها الشذا الذى يبعث موجات فى دمه تشب على اطرافها ، تلصق شفتيها بشفتيه ، تلقه نشوة ، ويدركه مرح جديد عليه ورغبة فى الصياح ، ومباهاة الخلق ، لم يعرف هذا من قبل ، لا يقبل سعدية ، يعم كل شىء بينهما فى صمت ، تتراجع نعيمة بعد أن شيعت اليه الدوار ، تتمنى لو قضت معه وقتا أطول .. لكن البك فى حاجة الى فنجان قهوة ، ثم تجهز الحمام للمدام كوكبتنا التى ستصحو بعد ساعتين ، يتساءل قلقا .. وهل سيبقى البك بمفرده ؟ تبتسم ، تداعبه ، هل بدأت الغيرة .. على العموم ستصل رفيقته الصحفية حالا ، انها تجىء متأخرة دائما ، ويخلو لها ان يعاتبها،فى المساء ستتكلم الى المدام بعد ان تشرب ويشعشع الخمر فى رأسها ، وتتمايل طربا ، قبل ان تبدأ الدندنة والغناء بصوت خفيض ستحدثها عنه ، ستقول لها انه يساعدها فى قضاء الحاجة ويحميها من مضايقات الشبان ، ستطلب منها السماح بمجيئه فى أى وقت بدلا من حضوره هكذا خلسة ، ان طلبات نعيمة لا ترد فى هذا البيت ، تتقدمه الى خارج المطبخ ، تقول انهما سيقطعان الصالة فى هدوء . عند عبوره فوق السجادة الوثيرة حرص على التقاط ملامح البك ، قصير ، بدين ، بدا أنه لم يسمع التحية . امام العمارة استنشق الهواء وانتبه للمرة الأولى الى متعة التنفس ، ود ان يتحدث الى أى مخلوق ، لكنه محاط بعزلة لا يبددها صمت عبده ، أى فرصة اتيحت له ؟ لا يحلم بها ضابط يقوم بالمراقبة ، لكن الحذر ، الحذر ، سيكتب كل شىء فى التقارير ، انه فى مهمة رسمية ، وهدفه يتحقق ، وكل مايطلب منه سيلبيه .. ماذا يعيبه اذن ؟ لم يتأخر هذه الليلة ، طلب من سعدية ان تعد له لقمة بسيطة ، قالت انها لديها بيضتين مسلوقتين ، أومأ برأسه ، الأنفاس الثقيلة تزحم الحجرة ، فكر ان يطلب منها فتح النافذة ، ستقول ان الدنيا برد والعيال سيصيبهم البرد . هل ينفع الندم بعد هذه السنوات من الزواج ، ربط نفسه فى سن مبكرة ولم يعش ايامه ولم يعرف الدنيا ، ولم يمر بما يسمعه ويراه ، تقول سعدية ان البيضة تباع بخمسة قروش ، لم يرد ، ستقص عليه حيرتها فى تدبير أمورها بالقروش القليلة التى تركها لها ، وأسعار الخضار ، والطماطم العفنة التى تقبل النسوة على شرائها

لرخصها ، وأم سعيد التى تقطع مشوارا كبيرا حتى سوق الباطنية لتشترى الباذنجان بأقل من السعر الذى يبيع به الخضرى ، أما هى فلا تستطيع المشى لأن ساقيها تؤلمانها .. لا شيء جديد ، ولا ثوب تفاجأ به ، حتى وجهها لا تغسله ، مع انه لديها الوقت الكافى قبل عودته ، لاتفعل ذلك الا يوم الخميس فقط وكأنه واجب روتينى ، أثناء تناول الطعام ستتقنق بصوتها ، ستلت اللقمة فى فمه ، ويفقد طعم صفار البيض،لو يغمض عينيه فيرى نعيمة ، سعدية تضع الصحن امامه ، تتراجع وتنظر اليه صامتة ، ان بدا تقبض قلبه ، كيف طاوع نفسه على الاسترسال فى تفكيره حتى يتمنى اختفاءها من حياته ، كيف تمنى ان يعود يوما فيجد زحاما وضجيجا وتهرع احدى نساء الحارة اليه صارخة ، تطلب منه ان يشد حيله لان الموقد انفجر فأحرق سعدية والولدين،انه ينظر الآن الى الخناقة كتفيها ، انه لايعرف شيئا من البيت ، تدبر أمورها ، لم تستدن ولم تورطه فى مطالب لا يطيقها ،، تتصرف ، تدبق ، زملاءه يشكون دائما ، اما هو فلا يشعر بوطأة الدنيا ، عندما خصم منه مبلغا فى احد الشهور لم تطالبه بما اعتادت ان تأخذه ، عرف فيما بعد انها اختصرت طعامها الى وجبتين لكنها لم تنقص شيئا مما تقدمه اليه لانه يجرى على الأولاد ويشقى عليهم ، يجب ان يجد ما يرمم عظامه ، ويبل ريقه ، ان موجة حنان تجرفه الى سعدية ، لو جاءته نعيمة هذه سينهرها ، لن يستجيب اليها ، حتى لو امره الضابط بدخول البيت فلن ينفذ الأمر ، فى الصباح ايقظ ولديه ، وداعبهما ، قرص عمر ، عند وصوله الى منحنى الحارة استدار الى الخلف ، سعدية تطل عليه من نافذة الحجرة ، امام العمارة اجاب بحفاء على تحية عم عبده ، فى حوالى الثالثة وهو موشك على اغفاءة دهمه خاطر يقول انه فى مثل هذه اللحظة منذ اربعة وعشرين ساعة كان يشم جسد نعيمة من قرب ، لم يبد لها أثر حتى الآن ، توقع ظهورها لتدعوه ، وليرفض ، لم تظهر اليوم ، متى يقول لها اذن ماقرر قوله ؟ ولماذا لم تأت ؟ ماذا كان الهدف من دعوتها له بالأمس ، هل يوجد هدف خفى ؟ هل قصدت تعريضه لموقف يحاسب عليه فيما بعد؟ لماذا لم تحضر اليوم ؟ هل كانت تعبث به ؟ لكن ... ألم يقس على نعيمة ؟ ألا يسيء الظن بدون دليل ؟ ألم تعرض نفسها للخطر من أجله ؟ هل نسى نظراتها اليه ؟

قبلتها الهامسة ، الطويلة ، هل سمع عن امرأة بادرت بتقبيل رجل الا اذا كانت مولعة به ؟ لو جرى ذلك لغيره لتباهى ، واليوم لم تظهر ، وبدلا من ان يسأل عنها ، هاهو يسيء الظن بها ، أهذه أصول ؟ فى هذه اللحظة طرحت الرغبة وأثمرت ، يريد رؤيتها ، سماع صوتها استنشاق وجودها الخفى المشع حول جسدها البض ، لكن اذا لم تفتح له ، ألم تقل له ان كوكيتا تنام فى هذه الساعة ، وانها ستطلب منها السماح له بالتردد ، يضغط الجرس . يفتح الباب ، نعيمة ، تومىء برأسها ، تسأله هامسة ، لماذا تأخر ؟ لم تخرج الطعام مباشرة ، انما أمسكت زجاجة ويسكى من الحجم الكبير ، يعرف الصنف جيدا ، والسعر ، لطالما كتبه فى كشوف المضبوطات ، من يدرى الى اين تذهب المضبوطات ؟ لم يذقه أبدا ، هاهى الفرصة ، مع الرشفة الأولى توهج فمه بمذاق لاذع سرى فى الأعضاء حتى استقر عند سقف الرأس ، يريد من الجرعة ، يخلع المعطف ، تتناوله نعيمة ، الحذر ، الحذر ، لن يشرب الى الحد الذى يفقد فيه الوعى ، لكن يجب الا يبدو امامها بلا تجربة ، ان طبقة لينة تحل بين مفاصله ، سكينة تتسرب اليه يشرع فى الحركة لكنه لا يحرك طرفا ، تنحل عقدة سوداء ، ضئيلة الحجم لكن ثقيلة الجرم ، تسيح فى جسده ولا ترسو عند فكرة معينة أو كدر ، تميل نعيمة فيرى منبت النهدين ، متى يدلكهما باصابعه ؟ تقول انه يمكنه ان يجيء فى أى وقت وأن يبقى كيفما يشاء ، المدام لم تمانع لانها لا ترفض لها طلبا ، يحيطها بذراعيه ، الجسم هش ، لا يمانع ، لكنها تبتعد. وشفتيها متباعدتين تطلب منه ان ينتظر ، الى متى ؟ الى متى والجدران تتمايل ، والجماد يتثنى ، تقول ان المدام كوكيتا ستسافر خلال أيام الى بورسعيد لتشرف على استلام شحنة أجهزة كهربائية ، ولوازم منزلية ، وسيارات ملاكى ، ثم تعود .. يمسك مستدى المقعد ، اذن فالقطاف ليس ببعيد ، يرن الجرس ، يجيء أربعة أشخاص،رجلان ، وامرأة ، وفتاة ، انهم من العاملين عند المدام كوكيتا ، الفتاة مضيفة فى شركة طيران وتشرف على عدد غير معروف من المضيفات الأخريات العاملات فى عدد من شركات الطيران الأجنبية كلهن يقمن بتوريد الويسكى ، والعطور الباريسية ، والساعات السويسرية والمجوهرات ، والأطقم الفضية ، والآلات الحاسبة ، والمعدات الصغيرة الالكترونية ،

تقوم كوكيتا بتوزيع البضائع على البوتيكات التابعة لها فى شارع قصر النيل ، والشوارنى ، وروكسى ، والاسكندرية ، أما المرأة فهى مصممة ازياء معروفة تظهر صورها فى المجلات وفى البرامج التى تعرض أحدث الموديلات الشتوية ، وقصات الشعر الأمريكية ، أما الرجل فمدير أحد البنوك الأجنبية ، والثانى صاحب معرض سيارات حديثة وعصرية ، يتساءل بلسان مثقل ، اذن فاروة المدام كوكيتا كبيرة ؟؟ تقول نعيمة ان أمواها لا تحصى ، لديها مجوهرات نادرة ، واثقال من الذهب ، نزولها الى سوق الذهب فى الصاغة يحدث هزة فى السعر عند كل الباعة ، لو اشترت يرتفع ولو باعت ينخفض ، تملك مساحات من الأرض فى الأسكندرية والبحيرة ، وبعض محافظات الصعيد ، وسيارات تاكسى ، وشقة فى لندن ، لكن رصيدها فى البنوك صفر ، لأن كل مليم يعمل فى أحد المشروعات .. وتسكت نعيمة فجأة ، تنظر اليه ، تقول ان اسئلته كثيرة ، يحملق ، هل اخطأ ؟ تبدو نعيمة رحبة ، واعدة ، يقول انه يريد معرفة كل شىء يحيط بها لأن حبها لمع فى قلبه ..

فى اليوم التالى سأل نفسه ، ماذا سيجرى لو زاد من جرعة الويسكى ؟ تقاربت الجدران ودنا السقف ، وانسالت نعيمة الى غروقه ، خلت الدنيا من الخوف المفاجىء الذى يبعثه ظهور الرتب الكبيرة ، وتساءل ، الم يكن جديرا باحتلال منصب ، أو العمل فى تجارة ؟ هاهو يكسب المئات فى صفقة واحدة ، يرى ورقة من فئة الجنيه ، وأخرى من فئة العشرة قروش ، جنيه فكة ، وجنيه صحيح ، رأى ضابطا برتبة ، وجنديا بدون رتبة ، كان يجب ان يصبح من هؤلاء الذين ينفقون ما يريدون ، لا مايجب انفاقه ، رأى حديقة بدون خضرة ، وخضرة بدون حديقة ، مصباحا بدون ضوء ، وضوءا بدون مصباح ، رأى مسجدا بدون مئذنة ، ومئذنة معلقة ، أى طنين فى اذنيه ؟ تقول نعيمة ان كوكيتا امرأة بحبوحة ، عرفت مر الدنيا وحلوها ، وهى تحب رؤية الأحبة مجتمعين تحت سقفها ، يغمض عينيه ويفتحهما ، أى طنين ؟ كيف طاوعه قلبه على أن يسبب الضرر لهذه الكوكتابة ؟ لعن الله الأوامر والتحريات وهذا الفخر الذى شعر به عندما جاء الى هنا لأول مرة

لأنه يراقب الوجهاء ، وذوى المناصب ، ها .. يقف ساعات طويلة فى البرد وهم يمرحون ويتعسون بين الجدران الوثيرة ، الا يشبه حارس المتعة ؟

فى ذلك اليوم تركته نعيمة فى المطبخ ، ثمة رجل قادم يستنفر البيت كله ، يجىء بالطائرة من بلاد بعيدة ، تعلن الصحف عن وصوله ، ويبدو لمن لا يعرف انه قادم لانجاز مهام معينة ، لكنه يقصد كوكيتا لانها توفر له مالا يستطيع أحد توفيره له،هذا الرجل تجاوز الستين ، عندما يجىء لا يرغب فى تواجد أى رجل فى البيت ، أو رنين جرس التليفون ، أو فتح النوافذ ، لكن لاضرر من بقائه فى المطبخ ، هو ليس ممن يخشاهم سموه ، قالت انه يهوى الابكار ، يفضلهن فى السادسة عشر ، تلميذات المدارس الأجنبية ، وياسلام لو ان الأب أرمنى أو يونانى أو اوربى .. خواجة يعنى .. والأم من بنات العرب ، يحب مجيئهن فى ثياب المدرسة ، يحملن حقائبهن يخاطبن المدام أمامه « ياأبلة » يقول آه لو امشى مع هذه الحلوة فى شارع الكورنيش .. ياسلام .. لكن ليس ماقى كل النفس يدركه المرء .. تغمز كوكيتا لبنت البكر وعندما يتزايد خجل البنت يبدى سرورا ، يلمع شفتيه ، يرفع يديه ليزيح اكمام الجلباب الأبيض الواسع الى الخلف ، ربما يخرج هدية ثمينة لكن الفتاة تتمنع ، ترفع عينيها الى كوكيتا التى تشجعها .. خذى من سموه .. قبل ان تذهب الى الغرفة الداخلية تقبلها المدام بحنان وتطلب من الأمير ان يترفق بها ..

ضحكت نعيمة وقالت انها لن تبخل عليه بأدق الأسرار ، ماذا يحدث فى الداخل ؟ ان الأمير يجلس فوق السرير ، يتطلع الى البنت ، يتنهد ، ثم يلمس وجنتيها ، ويعاود النظر ، فجأة يبكى ، ويضرب ركبتيه بقبضة يده متحسرا ، وبعد ان يشبعها عضا ، وركلا ، يفتضها بأصبعه ، فى احدى المرات قال مستشار سموه ان الأمير ابدى ارتياحا لأن البضاعة ليست مغشوشة ، ضربت المدام صدرها بيدها كيف يتسرب الشك ؟ لكن المستشار حاول ان يهدئها ، قالت انها لا تحضر الا مايريده بالضبط ، انها تستعرض وتختار ، وتجرى تصفية دقيقة ، كما تجرى

تحريات دقيقة حولهن بمساعدة ذوى التخصصات للتأكد من ماضى كل منهن ، انها تدفع مرتبات شهرية للمشرفات والعاملات ، وشبان من عائلات محترمة ، وشخصيات اخرى لا داعى لذكرها ، أو الافصاح عما تحتله من مناصب ..

فى طريق العودة الليلى ، وبعد تبخر آثار الويسكى تساءل .. لو تعرف نعيمة حقيقة المهمة التى جاء من أجلها ، ان رعدة تشمله اذ يتذكر نظراتها اليه وقولها « انت اسئلتك كثيرة .. » لكن لو شكت فيه هل كانت ستبوح له بأدق الأسرار سيتعجب الضباط من قدرته على النفاذ الى البيت عندما يقدم اليهم التقرير الشامل ؟ الآن لا يذكر الا مايمكنه ان يراه من مدخل العمارة . لن يصف كوكيتا الا عند سفرها الى بورسعيد ، حتى الآن لم يرها ، سمع صوتها فقط ، انها تستيقظ من نوم العصارى ، تجلس فى الصالة ، تمسك أحد المراوح الدقيقة ، انها مغرمة بهذه المراوح ، فى العام الماضى أهداها رجل أعمال يابانى مروحة رقيقة من الصدف المطعم باللؤلؤ . من مكانها فى الصالة وعبر التليفون تدير كل شىء،بعد انصراف المعارف والأحباب تحتسى مشروب الجين المضاف اليه عصير الليمون ، تتأوه ، تمصمص شفتيها ، ثم تطرق وقد تنام مكانها ، كان يظنها أصغر سنا ، لكن نعيمة قالت ان عمرها الحقيقى يتجاوز الستين ، لكن من يراها يظنها اصغر من ذلك بعشرين سنة ، جاءها شاب فى العشرينات ، أبن أحد المصدرين الأساسيين ، حمل معه توصية من صديق عزيز للمدام فى الجمرك ، لا تخوض كوكيتا مباشرة فيما جاء الضيف من أجله ، تقدم له الويسكى والطعام ، ثم يجرى الحديث على مستويات مختلفة ، حملق اليها الشاب طويلا .. ثم قال ان هدفه ومناه أمامه ، نعم .. يريدها هى ، ظنها ستلين له لتقدمها فى العمر ، لكنها ربتت كتفه بيدها ، نادته باسماء الدلع ، ثم صرفته ، وطلبت منه الا يدخل البيت مرة أخرى ، بعد شفائها من مرض قالت لنعيمة ان الطبيب راح يتعجب ويقول انها أكثر صحة من فتاة ، انها سليمة وجواهرها لم تصدأ ، كوكيتا عزيزة المنال وليس كما يظن البعض .

انه يقطع الطريق على مهل ، يفاجئه خوف غامض كلما تذكر كوكيتا ، انه يحار ، لماذا تمارس هذه المهنة التى تجر عليها الخراب .. لكن أى خراب يفكر فيه ؟ عندما دق جرس الباب أول أمس نظرت اليه نعيمة وطلبت منه ان يفتح الباب ، أبدى ترددا ، قالت انه لم يعد غريبا ، عبر الصالة الهادئة المعطرة برائحة خفية فوجىء بالضيف يدخل على الفور ، لم يسأل عن كوكيتا ، لم يلفظ حرفا ، انما دخل على الفور ، خيل اليه ان شخصا كان يرافق الضيف ثم اختفى بعد فتح الباب ، عبرت ظهره قشعريرة ، أكدت نعيمة انها لم تكن تعرف انه هو القادم ، انه الوحيد الذى يجىء فى أى وقت ، وتصحو كوكيتا من نومها لتجلس اليه ، تذكر الطريقة التى خاطبه بها ، واستدارته ، قال له أحد أصحابه مرة انه لايخشى ضابط الشرطة الذى يرتدى الزى الرسمى ، لكن مايبعث على الخشية هؤلاء الضباط والجنود الذين يختفون داخل ثيابهم المدنية ، فى مواجهة هذا الرجل أوشك أن يقف متصلبا ، ان يخبط قدمه فى الأرض ، ويؤدى تحية لا يجاب عليها فى كثير من الأحيان ، تأدية التحية بالنسبة له كالتنفس والمشى ، أما الرد فكرم من الطرف الآخر ، غير ان مأموريته لم تخلو من منغصات ، فى تلك الليلة اقترب منه جلال بك زوج تغيدة هانم ، ساكنا الطابق العاشر ، هش الرجل وبش وقال انه يريده فى كلمتين ، قال الرجل بعد ان انتحى به جانبا انه يراقبه منذ فترة ، وانه علم بطرق مختلفة انه مخبر من مباحث الحفاظ على الأخلاق وانه جاء الى المنطقة ليراقب كوكيتا .

قاطعه بسرعة :

« غير صحيح .. »

« من حقك ان تنكر ، فالشرطى السرى يجب الا يعرف انسان حقيقته ، ثق انه لايعرف أحد غيرى ..

على اية حال اذا كنت فى حاجة الى أى شىء .. الى أى معلومات أنا تحت أمرك .. هذه المرأة بؤرة فساد .. كم خربت من بيوت .. شد حيلك ..

من أين عرف الرجل ؟ كيف ؟ يعتبر مكشوفا الآن ، هل يبلغهم بذلك ؟ بعد فترة من الوقت قرر أن يؤجل ذلك الى مابعد سفر المدام الى بورسعيد ، وحتى يرى ماسيحدث مع نعيمة ، عاد الى بيته متأخرا ، تنفس امرأته بقلقه ، كيف احتملها طوال هذه السنين ؟ وعندما طلبت منه ان يحاول العودة مبكرا بعض الليالى ليجلس الى الولدين ، علا صوته حتى أوشك الجيران على التدخل لتهدئته ، الا تعرف طبيعة عمله ، الا تعرف الشقاء الذى يلقاه حتى يوفر لها ولولديها الطعام ، اغمض عينيه واستدعى نعيمة ، حن الى جرعات الويسكى التى تنفس الخوف ، وتزيح عنه الهموم ، البنت تزداد تعلقا به ، تداديه ، تناغشه ، لا تبخل عليه بشيء ، أعدت له طعاما مخصوصا وأكثرت من السمك عندما أبدى تفضيله له على سائر الأصناف ، قدمت له المقلى والمشوى والصواني غير انها لم تعطه مائتى ، ارجأت تنفيذ الوعود الى سفر كوكيتا .

فى الصباح جاءت أم صبحى الى امرأته ، وقالت الواحدة منهن لا يمكنها ان تعرف مايتعرض له الرجل من مضايقات ، حتى لو قسا فعليها ان تحتمل من اجل كوم اللحم الذى ترعاه ، نهنهت ، دمعت ، قالت انها لم تقل له شيئا يثير ضيقه وغضبه .

فى ذلك اليوم لم يصدق عينيه عندما رأى المدام اجلال ساكنة الطابق العاشر ، قالت نعيمة ، ان دهشته تعنى انه رجل خام لم يعرف الدنيا بعد ، ان كوكيتا تسيطر على سبع نساء فى العمارة ، لايجئن الى البيت من اجل اصحاب معينين انما ليضعن انفسهن تحت تصرف كوكيتا التى تقدمهن الى من تشاء وتختار ، قالت نعيمة ان سيدتها تأسر الأرواح ، كل من يعرفها يقع فى هواها ويخضع لها ، باستطاعتها ان تخرب بيوتا عديدة ، لكنها لاتفعل الا اذا لاح الخطر وظهر الشر ، كلما تردد أكثر سيرى العجب ، قالت نعيمة انه لديها مظروف يحوى صورا من جميع مايرسل ضدها من شكاوى ، حدث ذات مرة ان امرأة راحت ترسل البلاغ تلو البلاغ فكيف ردت عليها كوكيتا ؟ بحثت طويلا حتى

اكتشفت ان زوجها يعمل باحدى امارات الخليج ، ارسلت الى أحد معارفها الذى قام بعمل اللازم وتولى ترحيله خلال ساعات ، ان قرصة كوكيتا تؤدى الى القبر ، يحدث بين الحين والحين ان بعض الضباط الشبان الفرحين بالنجوم المتلألئة فوق اكتافهم ، الذين لم يجربوا الحياة بعد يحاولون مضايقة كوكيتا ، لا يسلم احدهم ابدا ، واحد ممن أرسلهم أحد هؤلاء الضباط ضمته المدام اليها ، اسرته برقتها ، وكرمها ، وما ابدته من صدق ، لدرجة انه كان يطلعها على كل مايكتبه ضدها من تقارير قبل ان يسلمها الى رئاسته فتجرى فيها من التعديلات ما تشاء ، بل انها طلبت منه زج اسم احدى عميلاتها فى بلاغ عن بيت يدار للدعارة فى العباسية ، امرأة محترمة فى نظر المجتمع ، كانت تسكن هذه العمارة وتجيء الى المدام على فترات ، وعندما بدا منها الغدر افترستها كوكيتا ، ولاتزال فضيحتها تدوى ..

وتوقفت نعيمة ، نظرت اليه ،

« لكن اسئلتك كثيرة جدا .. »

فى هذه اللحظات اخفى قلقا وابتسم مرددا انه يريد ان يعرف كل شيء عن نعيمته ، لكن ضيقا ألم به ، هل تعرف نعيمة شيئا عنه ؟ هذا الخاطر دفع الى البقاء فترات أطول بالقرب منها لعل دليلا يتكشف له فيتأى بنفسه قبل الوصول الى حافة الهلاك ، بل ان قلقه تزايد اذ ادرك بعد انصرافه انه لا يتعجل العودة لرؤية نعيمة فقط انما ليحاول تلمس مابنم عن ادراكها لطبيعة مهمته،حاول تهدئة نفسه بانه سوف يقدم كل التفاصيل فى تقرير يرفعه بعد ذهاب كوكيتا الى بورسعيد .

هاهو يقف صباح الاثنين المرتقب فى التاسعة ، تتوقف سيارة رمادية من طراز مرسيدس ، خلفها ، سيارة بيضاء من طراز بيجو ، يظهر رجل يحمل حقيبة ثقيلة كما يبدو من مشيه المتباطيء ، عم عبده يرفع يده ، كوكيتا ، لابد انها هى ، ألا انه لم يستطع تمييز ملامحها من موقعه الذى اختاره ، عند ناصية الحديقة ،

تمشى متهادية ، تزندى مايشبه العباءة ، الرجل يتقدم ، يفتح الباب ، على مهل تحنى ، تتحرك السيارة الرمادية ، تتبعها الأخرى ، تخطى بطيئة يتقدم من العمارة متلذذا ، مبتلعا لعابه بين الحين والحين ، مخاطبا دقات قلبه راجيا منها الهدوء ، يود ان تتأجل المتعة حتى يظل الحلم بها قائما ، تفتح نعيمة ، تتألق ، تضوى ، هكذا يجب ان تستعد المرأة لملاقاة الرجل ، تضحك ..

« هل كنت نائما بجوار الباب ؟؟ المدام نزلت من دقيقة »

يحاول ان يمسك ذراعيها ، تشمله رعشة ، وخور غامض حتى خشى الا يوفق وتصير فضيحة بعد هذا الانتظار الطويل ، يقعد فوق الأريكة ، لأول مرة يجلس فى الصالة الهادئة حيث امتزاج الروائح والظلال والضوء الناعم ، يحاول ان يحتضنها اثناء وقوفها ، يسند رأسه الى انبساط ورحابة بطنها،تقرب اصابعها من فمها ..

« أدخل الحمام .. اخلع كل ماعليك وانتظرنى .. سأدلك ظهرك بيدى ... »

لابأس ، ربما تريد ازالة مالصق به من روائح الحارة وقرف الحارة ، لها الحق ، ينظر الى الساعة ذات الاطار الذهبى ، التاسعة و النصف ، لابد ان الضباط كلهم وصلوا الآن ، سيذكر فى التقرير سفر كوكبتا الى بورسعيد ، لكنه سيضيف أيضا ان تردد البعض لم ينقطع حتى لايصدر أمر بتكليفه بمهمة أخرى ، ينفض مافى رأسه ، ما الذى جعله يفكر فى المكتب والضباط ، والتقارير والممر الطويل الكئيب الذى تصطف على جانبيه الحجرات ، ليس هذا كله مؤقتا ، بجوار الأريكة ، منضدة صغيرة فوقها أطباق صغيرة مليئة بالمربى ، والجبن الرومى ، شرائح الطماطم المطعمة بالبقدونس الأخضر ، لم يأكل افطارا من قبل يتكون من عدة أصناف ، طبق واحد ظل يوضع أمامه طوال عمره .

انه يقف الآن عارياً فى الحمام الملون ، الرف الزجاجى مثقل بانابيب ملونة

وزجاجات وعطور وعلب صغيرة مستديرة ، يتصاعد البخار ، تتضبب صورته فى الماء ، قال لنعيمة انه سيستحم بنفسه جيدا ، أدركه خجل ، لم يعتد ان تدلكه امرأة أو تدعك ظهره ، لكن الباب يفتح ، تقف نعيمة ، تعقد يديها امام صدرها ، يمد يديه ليستر مابين فخذيه ، تضيق عيناها ، ماهذه الابتسامة ؟ ليس التعبير المناسب الذى يسبق ماحلم به ، تستعرضه على مهل ...

« يكفى ياحضرة الصوّل ... »

• • •

نـــوبة حـــراسة

.. قالوا له .ان اختياره لم يتم عبثا ، ثبتت كفاءته خلال التدريبات ، والمهمات ، التى اشترك فيها ، خاصة جرأته وقوة تحمله وشجاعته ، غير أن موقعه الجديد حساس جدا ، ويحتاج الى يقظة عالية ، ان المبنى الذى سيقوم بحراسته هدف لكثيرين ، خاصة الحاقدين ، يقع فى هذه المنطقة الهادئة البعيدة عن قلب المدينة ، مما يسهل الوصول اليه ، خاصة بالسيارات التى يمكنها الاندفاع بسرعة كبيرة ، ربما القيت بعبوة متفجرة ، أو جسم غريب ينفجر بعد وقت محدد ، فى كلا الحالتين لابد من اليقظة ، لابد أن يفتح عينيه جيدا والا سيجد نفسه فى خبر كان .. مفهوم ؟ فى ثانية قد تحدث المصيبة ، مفهوم ، عليه أن يلتزم وضع الاستعداد التام ، وأن يحذر الحديث الى أى مخلوق ، ربما تعمد أحدهم مشاغلته ، ربما يعرضه لشم مخدر قوى بواسطة منديل ، أو باشعال سيجارة من نوع خاص ، فى كل الأحوال عليه أن يحذر ، وأن ينتبه الى سلاحه ، ليجعل فقد سرواله أسهل من فقد سلاحه ، مفهوم ؟ قالوا له انه سيقف وحيدا ، لكنه سيكون موضع مراقبة من مكان خفى ، عند الخطر ستنشق الأرض عن النجدة ، فتح النار يجب أن يتم فى حالات الضرورة القصوى ، واذا بدأوا هم ، مفهوم ؟ . لم يتكلم ، لم ينطق حرفا لأنه فى السابق عندما قيل له .. مفهوم ؟ قال نعم ، لكنهم زعقوا فى وجهه ، هل ترد .. هل تجرؤ ؟ تعلم الا يرد ، عندما جمعهم الضابط الطويل المتخرج حديثا من كلية الشرطة ، سأله عن أسمه ، عندما أوشك على النطق ، زعق فيه ، كيف يفتح فمه ، أمره بأن يذكر اسمه بدون أن يفتح فمه ، اضطرب ، عرق حتى غطى البلل عينيه ، اضطربت مصارينه ، لم يدر مايفعل ، تراجع الضابط مقهقها ، لاحظ فى هذه اللحظة انه أبيض ، ناعم الجلد ،

حليق ، نام جيدا ، عندما رآه يضحك لانث عضلات وجهه ، غير أن الضابط تبدل فى دقيقة ، هل تضحك ؟ نما رعبه ، فى هذا اليوم لف الملعب خمسمائة مرة ، بين الحين والحين يأمره بالوقوف ، يعلن انه أخطأ فى العد ، ليبدأ اذن من جديد ، يحدق اليه الضابط وعندما يتطلع اليه للحظة يرى كراهية عجيبة ، وقسوة تبدو فى ملامح الانسان الذى يتمكن من آخر ، ويصبح مطلق اليد فى أن يفعل به مايشاء ، سأل نفسه ، لماذا أنا .. هل آذيته ، لا أعرف الا اسمه الأول ، كثيرا ما أمره بخلع قميصه ، والإلقاء فوق الأرض مرتكزا الى يديه وأطراف قدميه ، تمرين الضغط ، بعد المرة الخمسين ترتجف عضلاته وتنفر أوردته ، وعندما يرتعش جسده كله يأمره بالكف ، فى مرة سأله عن الطعام الذى كان يطفحه قبل مجيئه الى وحدات الشرطة الخاصة ، هم بالاجابة ، زعق فيه ، كيف يجيب ؟ انه يسأل فقط ، أمره أن يقيس أرض التدريب بدبوس ابرة ، أمره أن يروى الحديقة مستخدما ملعقة شاى وفنجان كان عليه أن يملؤه من طلمبة يدوية ، أمره بأن يفرز الحجر الذكر من الحجر الانثى ، فى كل مرة لا ينفذ الأوامر بشكل يرضى الضابط ، يلف الملعب مئات المرات ، تعلم الصمت فى مواجهة ما يأمر به ، قالوا له ان التفتيش سيتم يوميا ، فى أى لحظة ولن يرى القائمين بالتفتيش ، ان واجباته محددة ، الدفاع عن المبنى ضد أى هجوم يقوم به الحاقدون ، لو رأى رجلا يقتل الآخر فوق نفس الرصيف ، عليه الا يتدخل ، لو ثارت ضجة بسبب لص أو نشال أو رجل يهاجم امرأة عليه الا يفارق مكانه ، ان مهمته حراسة المبنى ، انه مكون من طابقين ، تمتد أمامه حديقة بها أحواض زهور وكشك خشبى أخضر ، تعلو السور قضبان حديدية سوداء ، قالوا له ، عند حدوث خطر سينطلق تنبيه من داخل المبنى ، اذ يوجد عند اصحابه تليفزيون خاص يرون فيه سعى النمل فى الشوارع المحيطة مباشرة بالمبنى ، على الجانبين تقوم عمارتين مرتفعتين ، يغطس المبنى بينهما ، سكان العمارات تم تسجيلهم ، جمعت كافة المعلومات عنهم ، وعن أقاربهم حتى الدرجة الخامسة عشر ، لكل منهم ملف ، فوق الأسطح المجاورة شرطة سرية لمنع الصعود بحجة شم الهواء أو نشر الغسيل ، عليه أن ينتبه الى المترددين ، أن يرصد أى شخص منهم يتصرف بشكل غير

طبيعى ، عندما جاء فى اليوم الأول وقف على بعد متر واحد من الباب الحديدى ، بجواره نافذة ضيقة محفورة فى السور ، الممشى المؤدى الى المبنى مرصع بالحصى الملون ، الباب الزجاجى يحفه مصباحين قديمين ، تذكر عربات الحنطور الواقفة أمام المحطة فى البندر والمصابيح المعلقة على الجانبين ، يراها عند نزوله الأجازة ، أو عودته منها ، قبل ركوبه فوق سطح القطار مع عشرات من زملائه ، فى اليوم الأول خيل له انه ما من أحد يسكن المبنى ، خاصة والنوافذ مغلقة ، وفوق السطح ينتصب علم غريب ، لم يعرف الى أى بلد ينتمى ، ومجموعة من الهوائيات الضخمة ، الغامضة التى يراها لأول مرة ، استطاع أن يميز ايريال التليفزيون ، قالوا له انهم يرونه من الداخل ، راح وجاء فوق الرصيف ، عند مروره أمام الباب يسرع الخطى ، ربما ينظرون اليه من خلال شىء ما فى الباب ، أو تلك النافذة الضيقة ، أو بواسطة أحد الهوائيات الغريبة المعلقة فوق ، لكن لماذا يقلق ، أو يضيق ، ليس فى منظره ما يعيب ، السترة جديدة ، استلمها منذ أسبوع ، والحذاء الضخم لم يلن بعد ، حتى انه يؤلم قدميه ، ولابد من مرور مدة حتى يعتاد عليه ، غطاء الرأس فى الوضع المناسب ، لم يستطع قراءة اللافتة النحاسية ، مكتوب عليها بلغة غريبة ، أما اللغة العربية فمتداخلة الخطوط ، لم يستطع تفسير الحروف ، ثم ان قراءته بسيطة جدا ، وما تلقاه من تعليم الزامى هزيل ، لم يتبق منه شىء مع مرور السنين ، نسى الكلمات والحروف أثناء عمله فى نقاوة الدودة ، ثم تلاشى مانبقى عندما أصبح صبيا للترزى ، وبعد أن اشترى له شقيقه الذى يعمل فى الخارج ماكينة خياطة مستعملة ، واكتفى بها عن العمل كصبى فى دكاكين الترزية ، ولأن سمعته طيبة فى البلدة ، وأبوه رجل صالح ، جاءه الزبائن ، حتى انه قبل ذهابه لتأدية الخدمة العسكرية كان يعمل ليلا ونهارا ، وعندما يمضى فى أجازة الى البلدة ، لا يخلو الأمر من الرزق ، يقضى أيام راحته منحنيا على الماكينة ، أمه العجوز تصر على السهر بجواره ، تحكى له أخبار البلدة أثناء غيابه ، تحفظ آخر خطاب وصلها من الأبن الأكبر الذى يعيش فى غربة ، انه يروح ويجىء أمام المبنى ، ماذا يجرى داخله ؟ من يعيش فيه ؟ لم يستطع أن يخمن ، تذكر ماقالوه ، المبنى خطير ، وهدف للحاقدين ، لم يدر .. أهو سفارة ؟ أم قنصلية ؟ .. أم ..

ماذا ؟ . ركز حواسه على المارة ، وملاحظة المتسكعين ، أو الذين يتكرر مرورهم فى ظهيرة اليوم الأول توقفت سيارة جيب ونزل منها جاويش الفصيلة ، سلمه الوجبة الجافة ، وذكره بضرورة الا يشغله الطعام عن مهمته ، ستمر عليه السيارة فى الثامنة ليلا ، ميعاد تغيير النوبة ، لكن عند الطوارىء ، وعدم وصول البديل ، عليه أن يستعد لمواصلة الحراسة ، حتى مجيىء زميله ، مفهوم ؟ ليضع هذا الكلام حلقة فى أذنه حتى لا ينساه ، والا .. فلن يدرى ما سيفعلونه به ، بعد التهام الوجبة أدركه ظمأ ، كيف يشرب ؟ التعيين لم يحتو على مياه ، انه لا يحمل زمزمية ، لا تصرف لهم الا عند طلوعهم الى الجبل لاجراء التمرينات الصعبة ، تسلق جدران ، وعبور لهب ، ومشى فوق الحبال ، لكنهم لم يضعوا الزمزمية فى الحساب ، ربما لانه فى المدينة ، لكن ممنوع عليه الحركة أو الاتصال بالغير ، لا يلمح أى انسان خلف الباب المغلق ، يرى الجنايني ، سيناديه ويرجوه أن يملأ كوب ماء ، لابد أن الجنايني ابن بلد ، أن جفافا يكسو حلقه ، خاطر آخر ، أين يتبول ؟ لكن ما شغله الظمأ ، هل يتراجع بظهره حتى باب العمارة المجاورة وينادى البواب ، لكن .. ربما نحوه من الداخل فى التليفزيون ، ربما جاء الضابط فجأة ، لا يدرى ماذا يفعلون به عندئذ ؟، هؤلاء الأجانب لا رحمة فى قلوبهم ، والواحد منهم لا يعرف أخيه ، فما بالك بالغريب ؟ لم يكلفوا أنفسهم بالنظر الى من جاء لحراستهم ، ودفع خطر الحاقدين لم يرسلوا اليه طبق بطيخ أو قطعة جاتوه . الخفير فى البلدة يخرج له الأكل ويدعى الى الشاى ، وتدخين الحشيش أيضا ، مع انه لا يختص بحراسة بيت واحد ، أخرج لسانه مرات ليرطب حلقه ، يمكنه التحكم فى البول ، تأجيله حتى يختلس لحظة مواتية ، الشارع بعد الغروب هادىء ، خافت الضوء ، يمكنه أن يتخذ وضعا مناسبا لا يوحى لمن يراه على البعد بما يفعله ، لكن الماء ، سيتحدث الى الجاويش عند تغيير النوبة ، بدت له أيام الخروج فى النوبات الجماعية أرحم من هذه الوقفة التى لم يتبادل خلالها حتى السلام مع الآخرين ، يمرون به وكأنه غير موجود ، كانوا يركبون مائة ، أو مائة وخمسين جنديا ، يرتدون الخوذات ، وأغطية الوجه الواقية من الحجارة ، يمسكون

دروع رمادية ، وعصى غليظة ، يصيح الضابط فيهم قبل صعودهم الى اللورى أنهم سيذهبون لمواجهة الحاقدين ، هناك احتمال بتحركهم ، يجب التعامل معهم بدون رحمة ، يعبر اللورى طرقات المدينة ، يقف عند ناصية أو بالقرب من ميدان كبير أو فى مواجهة مبنى رئيسى ، أو فى شارع جانبى ، يطول الانتظار ساعات ، ولا يتبدل وضعهم داخل اللورى ، الواقفون قرب الباب ، أو المتعلقون بالسلم الخارجى يتابعون النساء ، وعربات الملاكى والسيارات ، وصيحات الباعة ، والمشاجرات الصغيرة ، وضحكات عابرة ، كان الضابط يجلس بجوار السائق فى الكابينة المغطاة بشبكة واقية من الصلب، يمر الوقت ثقيلا، يتسلل الحذر الى أعضائهم، يثقل الهواء داخل اللورى، يضيق الواحد بالآخر يتمنى بعضهم أن يظهر الحاقدون ، عندئذ يغادرون اللورى، ويذيقونهم المر الذى شربوه فى الوقفة وفى التدريب ، يكفى أن يطلقهم الضابط، لكن خلال المرات التى طلعوا فيها لم يظهر أحدهم، فى أحد المرات وقفوا ثلاثة أيام متتالية فى انتظار ظهورهم، لكن الضابط سمح لهم بمغادرة اللورى واحدا، واحدا، لقضاء الحاجة، وعلى كل منهم أن يتصرف، أمـا فى مقهـى، أو دورة ميـاه عامـة، الطريـق.. لا، كانـوا يعودون الى المعسكر كالقتلى ، يرتفع شخيرهم ، يجض بعضهم أثناء نومه ، ولا يخلو للضابط أخضر العينين أن يوقظه الا بعد العودة واستغراقه فى النوم ، ويأمره بالخروج فى الهواء البارد و لف الملعب ، بينما يقف عند مدخل الاستراحة يرقبه وينهره بصوت مرتفع إذا لاحظ أى تباطؤ . كان من السهل أن يقطع المدينة جريا من أقصاها الى أدناها بدلا من الحشر فى اللورى ، برغم ذلك كان اللورى له مزايا أفضل من هذه الوقفة الكريهة كأنه عود قصب فى غيط برسيم ، لم يتأخر الأكل أبدا فى دوريات اللورى ، لكن هنا كأنهم نسوه ، لكن ، ألم يقل الضابط انه سيراقبه بدقة ؟ عند الخطر ستظهر المساعدة من حيث لا يدرى ، ربما يرصدون حركاته الآن ، قد يستنتجون من وقفته وخطواته أن فى صدره ضيق ، عندئذ .. لا يدرى ما سيفعلونه به ، فى اليوم التالى تأخر مرور عربة التعيين خمس ساعات ، آلمه الجوع خاصة أن الدنيا برد والهواء يقص الأطراف قصا ، خلت الشوارع ، واهتزت الفروع العارية للشجر القديم ، وتذكر بأسى العودة الى البيت ، ووقيد

الفرن ، ورائحة الجبن القديم ، والخبز الساخن الذى يحمل لهيب نار الفرن ، ولسعة قرن الفلفل الذى دفس زمنا طويلا فى المش ، وآه .. آه من رائحة التقلية وطشة الثوم عندما يضاف الى الملوخية ، ابتلع لعابه ، لابد أن الضابط أخضر العينين يتتبعه بالأذى ، دائما يقول له .. شكلك لا يعجبنى ، أمامه يتوقف الآن ، أوتوبيس أبيض يتوسطه خط أحمر ، وكتابة بالانجليزية ، نزلت فتاتان ، احداهما أكبر وأطول ، تحتضن حقيبة الى صدرها ، لاتزيد عن الستة عشر ، ثوبها قصير ، وركبتاها مرتوبتان ربانتان ، الشبع ، الشبع يفقط من عينيها ، طلائع الفخذين الشابين ، القويين ، الناعمين ، يسرى دفأ فى جسده ، ينسى جوعه فى ظل جوع آخر ، حاد ، هفا قلبه ، انتبه الى وقوفه ، واحتمال مراقبته من مكان خفى ، نظر الى بنطلونه خجلا ، خائفا ، حاول أن يمسك البندقية بوضع أمامى ، تدخل الكبرى الى العمارة المواجهة ، وتمضى الصغرى ، الستائر مسدلة ، هدوء ، ظلال ناعمة ، راحة بال ، بعد عن الشارع واليد والهواء ، تخلع ثيابها ولا تبقى الا فى ملابسها الداخلية ، يضوى الجسد الفتى الضاج بالأنوثة والعافية ، يقتحم الغرفة هادئا ، يبدو الخوف على وجهها ، يلقى البندقية جانبا ، تلين مقاومتها ، تبسط يدها تتحسس عضلات ظهره ، تماما كما رأى فى السينما ، مقاومة يعقبها استسلام ، تصبح فى يده كالعجينة ، آه .. وهل هذا معقول ؟ ان همه الآن اخفاء البروز اللعين الصلب ، ربما يفضحه ، لو يصل الأكل الآن ، لا توجد أكشاك قريبة ليشترى منها باكو باسكويت ، لكنهم أزالوا جميع الأكشاك من المنطقة كأحتياط واجب لأمن المبنى ، بالأمس ، اضيئت الأنوار الداخلية فى المبنى ، خلف زجاج النافذة العريضة بالطابق الأرضى رأى خيال رجل ، وخيال امرأة ، بدا واضحا انهما يعدان مائدة ، مال الرجل ثلاث مرات وقبل المرأة ، ثم اختفت الحركة ، واستمر الضوء الهادى الناعم ماذا يضم هذا المبنى ؟ من المضحك طبعا أن يسأل بواب العمارة المجاورة ، ثم انه من الخطر تبادل الحديث مع الآخرين ، ربما رصدوه ، عندئذ لا يدرى مايفعلونه به ، حفظ ملاح المبنى ، عد البلاطات المربعة مئات المرات ، خطى بقدميه ، بلاطة ، بلاطة ، ثم بلاطتين ، بلاطتين ، ثم ثلاثة ، ثلاثة ، أطلق على كل واحدة اسم بلدة من التى

يمر بها القطار ، ثم اسم شخص من البلدة ، ثم سب الضابط أخضر العينين مرة فوق كل بلاطة ، تابع العابرون وهمساتهم ، بدأ يستلم القادم من أول الطريق بعينيه ، ثم يتابعه حتى يختفى عند الناصية المؤدية الى الطريق الرئيسى بالضاحية ، عندما يرى بعض الفتيات يضع يديه فى جيوبه ، يخطو خطوة عسكرية ، يعدل وضع البندقية ، قد يتظاهر بأنه يفحص الماسورة ، أو الخزانة الاحتياطية ، العجيب انهن لم يبدين اهتماما به ، كأنه لا يقف ، ولا يرتدى هذه الخلة السوداء متعددة الجيوب ، والتى لا يرتدى مثلها رجال الشرطة ، أو فرق التصدى للمظاهرات التى عمل بها زمنا ، عد نوافذ العمارات المحيطة به ، بعد مرور أسبوع تأخرت عربة التعيين أربع وعشرين ساعة ، ولم يتم تغيير النوبة ، ولم يكن قادرا على تغيير مكانه أو الجلوس ، اتكأ يظهره عدة مرات الى السور ليريح عضلاته ، كان يخطف الراحة خطفا ، عندما شكا سخر منه الجاويش ، ماذا لو حاصره الحاقدون لمدة خمسة أيام ، يجب الا يردد مثل هذا مرة ثانية والا رفع الأمر للضابط ، فى اليوم التالى فتحت نوافذ المبنى فجأة ، أضيئت مصابيح اضافية لم يرها من قبل ، جاءت عربة نقل صغيرة ، فى اللحظة التى توقفت فيها أمام المبنى فتح الباب بدون أن يرى أى انسان خلفه ، اذن فهم يرون من بالخارج فعلا ، على أية حال لم يرتكب مخالفة ظاهرة حتى الآن ، نزل رجلان يرتديان زيا أبيض ، ضرب الأرض بقدمه ، رفع يده بتحية صارمة ، من داخل البيت خرج خواجة طويل ، يرتدى قميصا أبيض ، بدا له غريبا فى عز البرد ، مرة أخرى خبط الأرض بقدميه ، رفع المدفع ، لكن الخواجة احمر الوجه لم يلتفت اليه ، بدأ نقل طاولات خشبية فوقها أطباق مغطاة ، طعام ، أناء كبير فيه أرز ، أرز بالزبيب ، الزبيب أكثر من الأرز ، سيحكى ما شاهده لأصحابه ، بدأ توافد الضيوف ، سيارات تحمل لافتات خضراء ، رجال يرتدون أربطة عنق ، يتأبطون نساءهم ، هفا قلبه ، عاد البروز ، رفع يده بالتحية عندما مرت من أمامه ، امرأة ترتدى فستانا أحمر ، عودها سارح الى أعلى بلا مانع ، بيضاء ، معقوصة الشعر ، الصدر شبه عار ، أبيض كطبق الفضة ، أدى التحية لكن لم يرد عليه أحد ، بدا له ذلك طبيعى ، انهم شخصيات ، اذا ضحك أحدهم له أو رد تحيته فان الدنيا ستخرب ، أصغى الى

الضحكات المتطايرة ، ابتسم فى العتمة كأنه يشارك ، هدأت الأصوات ، الملاعق احتكت بالأطباق ، ضحكة من فم ممتلىء ، لابد أنهم يطفحون ، ماذا لو أرسلوا له طبق ، لم يسأل عنه أحد ، تأخر الليل وتوالى انصرافهم ، مرت المرأة ذات الثوب الأحمر ، لمح جانب وجهها عندما مرقت سيارة المرسيدس السوداء ، خلا الطريق وقل عدد النوافذ المضيئة ، همد المبنى ، أغلق الباب الحديدى ، لم يسأل عنه أحد ، شغل خواجات ، تذكر أياما ثلاثة قضوها فى مواجهة الكلية التى اعتصم بها بعض الحاقدون ، لم يمر فى حياته أمام الجامعة ، ولو تركوه ليعود بمفرده فلن يعرف الطريق الى المعسكر ، قال الضابط ان هؤلاء الحاقدين يتعلمون ، ويقبضون ويحرمون أمثالكم من التعليم ، ثم .. لا يعجبهم ، بعد أيام ثلاثة من صد الطوب وارتداء الكمامات ، والجرى هنا وهناك ، أدركهم تعب ، نخ أحدهم كالجمل ، فى الليل اقترب منهم ثلاثة شبان ، خرجوا من الكلية ، كانوا يحملون أكياسا مليئة بالسندويتشات ، قالوا لهم كلاما رقيقا ، وعادوا من حيث جاءوا ، مرت فترة صمت ، لفهم تعب وخوف ، لكن الجوع كافر ، ان الليل يتقدم الآن وهو وحيد تماما ، فى هذه الضاحية تخف الرجل وتختفى بعد التاسعة ، ينفرد الليل بالشوارع والطرقات ، يبدد كل أثر للضجة ، يتشاعب ، لابد أن أمه نامت الآن ، يتخيل المرأة البيضاء ، لابد أنها وصلت الى بيتها منذ فترة ، تغمض عينيها ، تستسلم كالشجرة أم الشعور ، نوافذ المبنى مغلقة ، أضواء فى الحديقة لكن للظلال غلبة ، وقع خطى ، تخفز ، يبدو رجل فى نهاية الشارع ، يمشى بسرعة ، يرتدى معطفا ، يضع يديه فى جيوبه ، أهو أحدهم ، انه لا يدرى شيئا عن ملاعبهم ، أو أعمارهم ، أين يتربصون ، ولا لماذا هم حاقدون ؟ يقترب الرجل ، منذ نهار بأكمله وجزء من الليل لم يتحدث مع أى انسان ، ربما لن يرى شخصا آخرا حتى صباح الغد ، يرى ملامحه ، شاب ، يرتدى نظارة طبية .. يحاذيه ..

كم الساعة من فضلك ؟

العاشرة والنصف

لم يخرج يديه من معطفه ، لم يكلف نفسه عناء النظر الى ساعته ، يخجل من

نفسه ، ربما لأن سؤاله لم يلق اهتماما ، لكن لماذا يضيق ، وجوده كله لا يلفت نظر سكان الشارع ، حتى البوابون ، وجامعوا القمامة ، وموزعو الصحف ، وباعة اللبن ، بل ان فتاتين جميلتين ، طريتين ، توقفتا بالقرب منه ، راحتا تتحدثان عن مصطفى وعن شيرى ، الأسم الأخير لرجل أو امرأة .. لا يدرى ، اتفقتا على الذهاب الى مصطفى والى شيرى ، وعلى اللقاء بهما أولا فى النادى ، افترقتا ، كأنه غير موجود ، لا يرى ولا يسمع ، ولا نفس له ولا حواس ، لكن .. لماذا يضيق ؟ هل يحلم بالحديث الى احداهن ؟ ابن هو من سكان هذه الضاحية ، ليصل على سيد الخلق ، وليذكر اسم الله فى هذه الليلة ، غير انه فى عصر اليوم التالى ضاق بوقوفه ، وبشعوره المستمر انه مراقب من داخل المبنى ، يمتد الشارع باستقامة ، لو وصل الى آخره لن يبتعد عنه ، لو فوجىء بتفتيش لن يخرج عن مدى الرؤية ، كيف غفل عن ذلك ؟ انه يمشى على مهل متلفتا عند كل خطوة الى الخلف ، يمر ببيت من طوب أحمر ، وبيت تحيطه شرفة خشبية ، يقترب منه رجل يرتدى جلبابا بلديا

تسمح والله ..

يومىء الرجل مجيبا ، انه يسأل عن الطريق الذى يؤدى اليه هذا الشارع يقول الرجل انه يؤدى الى الشارع الرئيسى ، يتساءل ، الا يوجد دكان قول وطعمية بالقرب .. ينظر اليه الرجل ، قول .. طعمية ؟ لا طبعا ، يستأنف مسيره وكأن حديثا لم يجر ، يلمح فتى يرتدى ملابس رياضية ..

تسمح والله ..

ينظر اليه الفتى بدون أن يقول نعم ، يستفسر عن اسم الشارع ، لكن الفتى يهز رأسه ثم يمضى مسرعا ، أين هؤلاء من البلدة ؟ لو سأله غريب لمشى معه حتى مقصده ، فى هذا اليوم سأل خمسة أشخاص ، لم يدع رجلا يمر لا وسأله عن الساعة ، لم يتحدث الى أى امرأة ، لكن حوالى السادسة ، والليل يكتمل ، رأى انثى قادمة على مهل ، تحمل سلة ملونة يبرز منها مضرب ، ترتدى ثوبا أبيض ،

ماذا لو سألها ؟ الطريق خال من صراخ ابن يومين ، لن ينتبه أحد ، فوجيء بها تستجيب لسؤاله ، تتوقف على مقربة منه ، شم رائحة جسدها العطر ، الفستان قصير الى درجة انه يعلق بالعقل والقلب ، ليته يراه فى الحلم ليفعل به ما يتمنى ، انها ترفع معصمها حتى تعرض الساعة للضوء الباهت ، فستانها ، آه من مقدمة ركبتيها ، طلائع دنيا هبه .. دنيا ، تقاسيمها الخفية تشى وتوحى ، رائحتها تشفى العليل ، ضرعاها ؟ صلبان بمسكان بعضهما ، تقول .. السادسة والربع ، يرفع يده ، ألف شكر ، تمضى متمهلة ، متعمدة ، مستفزة ، مهتزة ، متايلة ، جنس آخر غير نساء البلدة ألم تتعمد المشى البطىء ألم تغمس عينيها فى عينيه ، ثم لماذا تمشى بمفردها والطريق موحش والليل نازل ؟ نساء المدن يظهرن مالا يتوقع ، سمع عن اعجابهن بفحولة أبناء الأرياف لبرود رجال الحضر ، وقلة خوفهم ، وضعف شهوتهم ، انه يود لو استعاد لحظة وقوفها ، يحدد المكان الذى وقفت فيه والفراغ الذى امتلأ بطلاوتها ، لو تعود ، لكن الليل يستفحل ، والوحشة تغمره ، عند الفجر يصغى الى صفارة القطار البعيد ويدهمه أسى ثم يجىء آذان الفجر ، يرقب المصابيح تضاء خلف النوافذ ، لابد أن بعض الرجال والنساء يقمن للاستحمام بعد الحر واللزوجة ، يتزايد شعوره باليد عندما يرى اختفاء الأضواء من النوافذ ، يقول لنفسه ، انهم يذهبون الى النوم ، الى الأغطية ، وهو باق ، لا جدران تلمه ، ولا سقف يستره ، ويتزايد أيضا عندما يشتعل مصباح فى منتصف الليل أو قرب الفجر ثم ينطفىء من جديد ، يتخيل دفأ الحجرات التى لا يصفر فيها الهواء ، والتى لاتبدد نفس بنى آدم والنفس مدفأة الأوصال ، فى الصباح المبكر يفتح الباب الحديدى فجأة ، تظهر سيارة سوداء ، من الجراج ، تمرق أمامه ، لا يستطيع أن يلمح ركابها ، لكنه يؤدى التحية ، يحاول أن يصلب جسده المرهق ، انه لايرى سكان المبنى حتى عندما يخرجون ، يسأل كل من يمر أمامه عن الساعة ، يمضى النهار ، لم يسأل أحد عنه ، هل نسوه ؟ يدق قلبه عند اقتراب الموعد ، لو عادت اليه ، لو وقفت لحظات لامدته براد للحلم عندما يغفو ، اجابه أحد المارة بانها السابعة والربع ، لم تظهر ، تقترب سيارة من المدخل ، يفتح الباب تلقائيا ، يرفع يده بالتحية ، لايدرى من يركب العربة ، لكن صبيا ، انها تظهر . تتخلق عند نهاية

الشارع ، المشى اللين ، لكن .. هى .. لا .. ليست هى ، هل يذكر ملامحها ، انه لم يرها الا لثوان ، ماذا يجرى لو فاجأه الضابط ، أحضر العينين الذى أذاقه المر لأن شكله لا يعجبه ، ماذا لو فاجأه الحاقدون ؟ ربنا يستر .. انها تقترب .. لا .. ليست هى ، تلك أقصر طولا وأكثر امتلاءا ، يسأل عن الساعة ، لكنها لاترد ، يخيب أمله ، يدركه خجل ، قفاه يسخن ، مع ذلك استدار ليشبع النظر بالمؤخرة والاهتزاز المتبادل ، آه .. انها تقف ، تقف بعد نهاية السور ، يفتح بواب العمارة المواجهة ، لكنه على الرصيف المقابل ، لن يتجه اليها فورا ، انه يمسك المدفع بشكل لافت للنظر ، يفرد طوله ، تعب يسرى فى ظهره ، تنظر ناحيته ، يتبدد التعب ، والجوع ،، وغموض المبنى ، وتحياته التى لا ترد ، والحرص من الحاقدين ، واضطهاد أحضر العينين ولف الملعب والحبس الانفرادى ، ينصهر هذا كله فى نار تقيد داخل جسده ، يتجه ناحيتها ، لن يقترب منها حتى لا يلفت نظر البواب الرذل الذى لازال يقف ، ينادى بصوت مبحوح مبلول بالنعاب ..

ياجميل ..

أليس هذا مايقال فى موقف كهذا ، لماذا يرتعش ، لماذا يرتجف ، ليثبت ، عندما تلاغيه سيزول ارتباكه ..

اسمع ياجميل ..

ينتفض ، يد فوق كتفه ، يلتفت ، تتطاير نجوم ويسود ظلام ، صفعة ، تتقشع غشاوة ، رجل متوسط القامة ، مدكوك البدن .

ارفى بطاقتك ..

يرفع يديه حتى يتقى الصفع ، تسقط الخزانة الاحتياطية ، يمسك الرجل ياقته ، يجذبه ، يضربه بالدماغ ، يسيل دم ،

طلع بطاقتك

سامحنى ياأفندى ..

أفندى .. أفندى ياقليل الأدب .. شوف من يكلمك ..

يتوالى الصفع ، يصر الرجل على رؤية البطاقة ، تقترب المرأة ، ترجو الرجل أن يكتفى بما جرى ، يدفعه حتى يلصقه بالجدار ، يعلن الرجل انه سيعود اليه ، سيريه النجوم فى عز الظهر حتى يتعلم الأدب ، الدم يلوث السترة ، انم حاد فى أنفه ، يد تلامسه ، يرتجف ، انه بواب العمارة المواجهة ، طلب البواب منه أن يجلس ، تلفت حوله ، هل يصح جلوسه ؟ قال الرجل ، أجلس انت تخر دما ، طلب منه أن يرفع رأسه الى الخلف ، قال له ، لماذا لم ترد على الأفندى .. أليس عيبا أن يضربك وانت طول بعرض ؟ لم يرد ، انه لا يذكر ملامحه ، لم يستوعبها ، لكنه يستعيد ملابسه ، يراها بوضوح ، بلوفر ، قميص ، قال البواب ، لماذا لم ترد عليه ؟ ، قال ان الأفندى طلب منه أن يبرز بطاقته ، أبدى البواب دهشة ، تساءل .. هل هو ضابط ؟ ردد .. لا أعرف .. لاأعرف ..

١٩٧٩

• • •

القلعة

.. زنزانة مستطيلة ، طولها أربع خطوات ضيقة ، عرضها لا يسمح بفرد ذراعيه عندما يشرع فى اداء بعض التمارين . أرضيتها حجرية ، سقفها مرتفع قدر أربعة طوابق فى مبنى حديث . تتوسطه فتحة دائرية للتهوية ، مغطاة بالصفيح . فى الليل يخطو جنود الحراسة . تتردد الخطى مكتومة حتى تمر فوق الصفيح . عندئذ يتردد الصدى المعدنى ، فى السنوات العشر الأولى أزعجه ، كثيرا ما أيقظه من نومه مرات . لكنه فى بداية السنة الحادية عشر اعتاده كما اعتاد كل شىء منذ زمن . فوق الباب مصباح كهربائى ، صفراوى ، كابى الضوء ، يراه من أى موضع حتى لو أولاه ظهره فلا سبيل للهروب من ضوئه الشحيح . غيروه سبع وثلاثين مرة منذ دخوله هنا . يضىء الليل كله ولا يدركه الوهن الا للحظات عندما تتغير سرعة ماكينة الكهرباء الوحيدة فى هذا المكان القصى ، النائى ، الباب خشبى سميك ، أسود ، تتوسطه طاقة ضيقة ، مغطاه من الخارج بغطاء متحرك ثقيل يمكن النظر اليه يملى الباب الخشبى فراغ طوله خمس عشرة سنتيمترا ، ثم يقوم الباب الحديدى المصمت . يليه باب القضبان ثم الممر الخارجى ، تصطف على جانبيه سبع وأربعين زنزانة ، هناك أقسام أخرى تؤدى اليها أربع درجات متصلة . رآها مرتين عندما اتيح له أن يزيح القلنسوة عن عينيه . يقودونه مرتين الى دورة المياه . فى السابعة صباحا ، وفى السابعة مساء . فى السابعة مساء الصيفية أحس بالضوء يغمر ما يحيطه . وفى السابعة مساء الشتوية ارتجف بردا ، وثقلت عليه العتمة . بل ارتعش للمس الضباب على جلده . فى البداية لم تطاوعه أعماقه . لكنه مع الأيام تكيف مع ظروفه . أصبح ذلك يتم تلقائيا ، يقع السجن فى أقصى الصحراء الشرقية . شيد منذ قرون ، لكنه لم يفقد وظيفته ، أضاف اليه كل عصر ، وحسنه

كل عهد . يقع فى منطقة جدباء ، تخلو من الخضرة ، من عيون الماء ، مسكونة بوحوش نادرة تخلو منها مراجع علم الحيوان . يعرف انه الوحيد المتبقى فى كافة هذه الزنازين . لكنه لم يدر كم جنديا يقوم على حراسته وادارة هذا السجن الضخم انهم يدفعون اليه الطعام فى خشونة ، ينظرون اليه بضيق ، لم يتبادلوا معه الحديث أبدا طبقا للتعليمات الصارمة . انه آخر من تبقى ، تكاد عيونهم أن تقول له ، لو أفرج عنه ، ربما تقرر اغلاق هذا السجن الأثرى ، الموحش ..

الزيارة غير المتوقعة

.. حدث فى وقت ما أن رصدت حواسه حركة غير عادية ـــ الأصوات لاتصل اليه عبر الجدران السميكة . لكنه يذكر الذبذبات الغامضة عندما كان زملاءه يقضون مدد عقوباتهم المختلفة ، الهمهمات الهمهمات ، الأصداء المكتومة التى تصدر عن الوجود الانسانى . عندما خلا السجن منهم استطاع تحديد ذلك . لم يعين اليوم بالضبط ، تداخلت قسمات الأيام ، وتوالى الأسابيع والشهور ، بعد أن ايقن من مغادرتهم لفه خواء ، وأسى ، وغزته وحشة ، كأنه كان يجلس اليهم . ويسامرهم . ويتبادل معهم النجوى والهموم وشد الأزر ، لا يذكر انه ضاق بسجنه كما ضاق به فى هذا الزمن الذى أدرك فيه انه بمفرده ، أما الحراس فتضاعفت غلظتهم ، وقست ملامحهم ، قال له أحدهم مرة واحدة انهم سيقتلونه لانه آخر من تبقى . عندئذ سيغلق السجن الى الأبد ، من وقع الخطى فوق الصفيحة ، من عدد المرات التى يطلون فيها عليه ، يمكنه استنتاج ايقاع الحياة ، لهذا عندما فتحت الزنزانة فجأة فى غير موعد ذهابه الى دورة المياه . أو احدى الوجبات ، وعندما رأى الحارس مصمت الملامح توقع حدثا غير عادى ، أومأ اليه ليخرج ، لايتخطى الحراس العتبة خشية هجوم مفاجىء يعقبه احتجاز بائس . وقف مشدوها بالضوء ، انه بدون قلنسوة ، أمسك بذراعه . يبدو المكان أضيق مما توقع ، وفى العلو المتناهى زرقة السماء ، عند بداية الدرج يقف حارسان بالملابس الرسمية ، مدججان بالذخيرة والسلاح ، القسم الخارجى مغمور

بالشمس ، كان جائعا الى الدفأ ، الى تسلل الأشعة الحذر حتى نخاعه . ماذا سيجرى ؟ من سيقابل ؟ هل سيعود الى الزنزانة مرة أخرى ؟ دفع به الى زنزانة يتوسطها مكتب . أمامه مقعد بدون مسند وضع على مسافة بحيث لا يمكن للجالس فوقه أن يلمس حافة المكتب ، انه الجلوس القلق ، المعبأ بالترقب . هل يبدأ التحقيق مرة أخرى فى القضية ؟ . يقف خلفه أحد الحراس يضعونه فى بؤرة الضيق ، والتحفز لتلقى الضربة المفاجئة . تقترب خطوات . يدخل رجل كثيف الشارب ، يلقى التحية ، ثم يبدى غضبه لانهم وضعوا المقعد بعيدا عن المكتب ، يشير اليه أن يقترب ، اللهجة الودودة فى البداية ، المهم مابلى ذلك .. صوت تنفسه مرتفع ، يشبك أصابع يديه . يقول ان المسافة طويلة ، لا يدرى من فكر فى بناء هذا السجن هنا ، كيف اهتدوا الى هذا المكان فى بداية العصر السلطانى مع تخلف وسائل المواصلات وقتئذ ، يتوقف مبتسما ، لكنه لا يجيب مع تحرقه الى الحديث ، الى ممارسة الحوار مع آخر حتى لو كان جلادا ، منذ سنوات طويلة لم يتبادل الحديث الانسانى . لم يستمع ليجيب ، ولم يأخذ ليعطى ، استنفر حواسه لاستنتاج الخطوة التالية . اذن .. هذا الرجل قادم من العاصمة ، انه ليس قائد السجن ، يقول ذو الشارب الكثيف انه يحمل خبرا هاما ..

« يابنى .. تقرر الافراج عنك .. »

يستمر . لقد مرت خمسة عشر عاما . نصف المدة . وطبقا للوائح فان حسن السير والسلوك يتم الافراج عنه فورا . جميع التقارير تؤكد مثالية تصرفه ..

أى يوم هذا ؟ ما موقعه بين الأيام ؟ مفاجأة ؟ نعم ، لكن قلبه لا يدق الدم ، وعروقه لا تسرع بالنبض ، بل انه يركز عينيه على القميص الأزرق الذى يرتديه الرجل ، ورباط العنق الداكن ، أوشك أن ينسى الألوان . وتذكر اللحظات الغريبة عند نواصى الطرقات البعيدة ..

« اننى هنا حتى يتم ترحيلك ، ستصل السيارة الخاصة صباح الغد .. كم الساعة الآن ؟ .. الرابعة .. انها تتحرك فى هذه اللحظة . ستصل الى الوادى

قبل غروب الشمس .. »

ينظر فجأة الى الحارسين الواقفين عند المدخل ، يطلب منهما نقل كافة الأمانات المتعلقة والهدايا التى أرسلت اليه ومنعت عنه ..

« عدا الطعام طبعا .. »

يضحك ، يقول انه سيدعه ليحزم حقائبه ، المهم أن يكون جاهزا للرحيل صباح الغد لأن التوقيتات مهمة جدا ..

ينهض متمهلا ، أحقا سيغمض عينيه على خضرة الوادى غدا .. فى مثل هذه اللحظة ؟ .

« .. هل تعرف انك ستخرج عن ثلاثمائة ضابط وجندى .. أنت آخر من سيضمه السجن .. »

فى الليل تتكاثر النجوم :

.. لأول مرة منذ خمسة عشر عاما تفتح الزنزانة طوال الليل ، باستطاعته أن يخرج فى أى لحظة ، أن يتجول ، أن يصعد السلالم ، لكنه لم يفارق الزنزانة ، قعد قريبا من الباب بحيث يمكنه رؤية السماء وهذه النجوم كلها ، والشهب المارقة ، وأطياف ضبابية ، فى حياته كلها لم يحدق الى السماء مثل هذا الوقت ، لم ير مثل هذا العدد من النجوم ، كأنه على وشك العودة الى الكوكب المسكون بعد رحلة فى الفضاء المهجور ، خمس عشرة سنة من الحبس الانفرادى ، يبدو زمانه كتلة واحدة بلا معالم . أو حوادث تميز فترة دون الأخرى . لكنه لا يخطىء التفاصيل ، فى أيامه الأولى حاول أن يتحدث الى الحراس الذين يرتدون زيا بنى اللون ، تجاهلوه ، حاول أن يبدو مرحا عندما تحين لحظة ذهابه الى دورة المياه ، لكن التواصل معهم بدا مستحيلا ، أعدوا اعدادا خاصا ، وعندما ارتفع صوته بالغناء

زعق صوت خشن ، « اخرس يا أربعة وثلاثين » ، كانوا ينادونه برقم زنزانته ، فى أسابيعه الأولى اختلطت الأيام ، بدأ يحفر خطوطا نحيلة ، يبدو انهم اكتشفوا ذلك ، أعادوا طلاء الجدران ، حاول الاحتفاظ ببذور حبات الزيتون الأسود ، لكن فى اليوم السابع طالبه الحارس ــ قصير ، أصلع ــ بعدد البذور ، استخلصها منه . مع تداخل الأيام بدا له مرور الزمن أسرع ، بطول الزمن أو بقصر بنوعية الحركة ، وتنوع الهموم أو الأفراح ، خلال هذه السنوات جاءوا اليه مرات ، انهوا اليه أخبار خروج زملائه فى القضية . فقط .. كتبوا عدة سطور ، ثم انتهى الأمر ، أبدوا له اللين أحيانا والقسوة أحيان أخرى . اعتصم بصمته ، ولاذ بأحتقاره لهم ، وازدرائه لكل مايجىء من ناحيتهم . لكن عندما كتبت اليه زوجته الخطاب تلو الخطاب فى السنة الرابعة ، عندما ناشدته أن يفكر فى حياتها ، فى المستقبل . فى السنوات التى تنقضى ، عندما كتبت اليه تشير الى أيامها هى ، وحيرتها هى ، عندما طلبت منه أن يفكر فى انسانة ارتبطت به .. تخلخلت روحه ليالى قاتمة ، ولفه أسى . ثم اتخذ قراره .. ان يخلها من كل شىء ، أن تمضى بمفردها ، كانت أيام سوداء لكنه اجتازها ، مرت كالحلو والمر ، انه الليلة يفسح قلبه لبهجة لم تواته منذ أمد . واحساس واعى بانه انتصر عليهم . لا يدرى الى أين سيتجه بعد خروجه . أو بمن سيلتقى ؟ لا بيت ، لا أسرة ، لا مأوى ، لا يدرى الحى والميت من الأصحاب . كيف أصبحت الأوضاع . لكن يكفيه انه لم ينكسر فى زمن الانتكاسة . لم يستجب لهم . حتى ان مالت الدنيا كلها عنه ، وغربت شموس حظه ، يكفيه انهم يدركون انه لازال خصما ، وان بدا كجزيرة معزولة . انه يعود الى الليل ، الى النجوم ، ترى كيف ستبدو ملامح الطريق الطويل . المدن التى سيمر بها ، الجسور التى سيعبرها ، مفارق الطرقات التى يهفو لها قلبه وتأن روحه ، تدفق المارة الذى لا ينتهى ، يذكر من المدينة الساحلية الثانية طريقا جانبيا مبتلا بماء المطر ، وانعكاس ضوء على البلاط اللامع ، وامرأة عجوز تحمل سلة ، ورجل يرتدى معطفا ، واحساس بالرطوبة ، ما أوجعه مرارا استعادة هذه اللحظات التى توثرها الذاكرة دون سائر المواقف وتأبى ضياعها ، ماذا سيفعل ؟ كيف سيرتب أموره . يهفو الى البحر ، الى مواجهته بالساعات

الطوال ، جاءوه بعشاء خاص ، لأول مرة منذ خمسة عشر عاما لايأكل قطعة الجبن ورغيف الخبز والزيتونات التسع . أكل قطعة لحم ، طبق سلاطة خضراء ، وأصبعين من الموز ، ثم جاء اليه ثلاثة من الحراس ، يحملون حقائبه ، عندما جاء الى هنا لم يصحب الا حقيبة واحدة ، انه يرى لأول مرة الحقيبتين اللتين ارسلتهما زوجته خلال العام الأول ، ملابس داخلية ، معاجين أسنان تحجرت محتوياتها ، زجاجات عطور ، مناديل ورقية ، أدوية مقوية ، فيتامينات وخديد ، حوالات نقدية ، ستة جوارب صوفية ، عاد يقلب الأشياء مرة أخرى .. حاشوا عنه كل مأأرسل اليه . انه يقلب الحاجيات مرة أخرى ، تصله بفترات انطوت من حياته ، ماذا سيفعل بها ؟ لازال الحراس الثلاثة فى مواجهته ، لم ينصرفوا ، عندما نظر اليهم قال أحدهم : « بالسلامة .. ستخرج سنخرج نحن معك » . يقول الثانى ان السجن سيغلق ، سيتسلمه الجيش ، سيتحول الى موقع لشىء ما . انه يعاود النظر الى الأشياء ، يطلب منهم أن يقبلوا هذه الهدايا منه . ان يوزعوا ما يفيض على زملائهم . لم يتبق الا ملابسه الداخلية . وحلته القديمة التى حال لونها وتجمد قماشها ، فى السنوات الأولى امتلأ جسمه،تزايد وزنه ، منذ السنة السادسة تناقص وزنه ، نحل وخف وبرزت عظامه ، عند الفجر جاءه حارس آخر ، سأله ، هل يحتاج الى خدمة ما ؟ شكره وندم لأنه لم يحتفظ بشىء يعطيه له ؟ ، قال الحارس ، « سنذهب أخيرا الى بيوتنا .. سينتهى هذا السجن الى الأبد .. انه ليس افراجا عنك بل افراج عنا » ... أومأ برأسه . لم يدر كم أغفى ؟ استيقظ والسماء بادية ، حلوة ، رحبة ، واعدة ، وتذكر وجه فتاة أحبها فى أول العمر . كأنه يراها أمامه ، كان يراها عند خروجه الصباحى وأغنية مبهجة تتردد مبشرة بنهار جميل رائق ، أدرك انه كان يحلم بها ، وأن الحلم لفه بالحنين الضارى ، خطا خارج الزنزانة ، لم يأت أحدهم اليه ، بمفرده بدون أن يمسك حارس بذراعه ، اتجه الى دورة المياه ، عندما عاد رأى صينية نحاسية فوق الأرض ، كوب من الحليب ، قطعة جبن رومى ، صحن من الخزف به أربع بيضات مقلية فى السمن ، سمن حقيقى ساخن ، رغيف طازج ، أين ذلك من طبق الفول الأسود الذى لم يكن يستطيع ابتلاع حياته الا بعد هرسها . بعد أن أبتلع آخر لقمة ، وآخر رشفة ،

جاء الحارس مبتسما ، أصر على حمل الحقيبة عنه ، مشى فى الحلة الفضفاضة والحذاء الذى تيبس جلده ، دخل الى المكتب النظيف الهادىء الواقع قرب البوابة الرئيسية ، يبتسم ذو الشارب الكثيف ، « أهلا .. أهلا .. لن تتأخر السيارة .. انها على مقربة من هنا .. »

قال إنه يعرف الأيام القاسية التى عاناها فى هذا السجن الجهنمى ، لكنه يرجوه أن يحاول"النسيان"، على أية حال ، الأيام الحلوة والأيام المرة تتشابه بعد مرورها ، ولا يتبقى الا الأسف على مضى العمر الجميل ، ان موقفه مثار احترام عميق حتى من خصومه ، ياه .. لماذا تأخرت السيارة ؟

اصغى صامتا ، فوق الدولاب الرمادى لمح نسخة من جريدة الأنباء ، من المساحة البادية رأى جزءا من العنوان الرئيسى ، زيارة الى الهند ، نسى شكل الجريدة . يود لو اطلع على عدد واحد ، حتى وان انقضى عليه أسابيع ، يبدو ذو الشارب قلقا . يخرج ، انه بمفرده ، يشعر انه مراقب من مكمن خفى ، ان حركاته مرصودة ، جاء الى هنا فى الليل ، غطوا رأسه بالقلنسوة ، لم ير أى مساحة متكاملة من السجن ، لابد أن معالم العاصمة اختلفت ، يخفق قلبه ، يشتعل توقه الى المشى ، المشى ، المشى .. يعود ذو الشارب الكثيف ، تنيء ملامح الوجه بشىء ما ..

« يبدو أن العربة تعرضت لحادثة من نوع ما .. عطل بسبب وعورة الطريق .. ستصل اليها نجدة خاصة .. للأسف.. يبدو انك ستشرف السجن ليلة أخرى . لكن يمكنك أن تنام فى أى مكان .. فى استراحة الضباط اذا شئت .. »

« .. ان « لو » تفتح عمل الشيطان .. »

.. لو أن العربة وصلت فى ميعادها ، لو انه فارق السجن ، لانقضى على

تحركه الآن ساعة أو ساعتين بعيدا ، لاحاطته الجبال التى يتلوى فوقها الطريق الممتد لألف كيلو متر حتى الوصول الى الوادى . الى اللون الأخضر ، والظلال ، ورؤية الصغار ، وعبور المفارق ، والتمهل عند الجسور ..

لو أن العربة جاءت لأصبح الآن هذا المكان فى عداد الذكريات التى ولت . عندما دفعوا به داخل الزنزانة منذ خمسة عشر عاما ، عندما نزعوا عنه القلنسوة السوداء ورأى جدب المكان ، وصفرة الزنزانة دهمته كآبة ، وخيل اليه انه لن يعيش طويلا هنا ، لكنه فى صباح أول أيامه قال لنفسه ان هذه الأبواب عبرها من قبله كثيرون . ثم خرجوا ، والا لما جاء الى هذه الزنزانة بالذات . وفى لحظة ما ، فى يوم ما ، سيخرج كما دخل .. لو أن العربة جاءت ، لتحول وجوده الممتد الطويل هنا الى صور وأخيلة .

العصر ، وديب الوهن الى ضوء الشمس ، نذر الليل المقبل ، مرة أخرى سينظر الى النجوم . لو أن العربة جاءت لانقضى عليه الآن ثمان ساعات على الطريق ، لتبادل الحديث مع حراسه ، لاستفسر عما لحق العاصمة من تغييرات ، الشوارع التى اتسعت والبنايات الجديدة ، الاتساعات ، من مات من المشاهير ؟ وكيف تبدو الأحوال ؟؟

لو أن العربة جاءت ، لأضاءت كشافاتها الآن ، لاجهد السائق عينيه حتى لا تضيع معالم الطريق خوفا من التيه ، بعد أن تناول عشائه خيل اليه انه سمع رفرفة جناحى طائر ، صوت لم يألفه ، لابد أن هذا الخلاء يحفل بمخلوقات غامضة ، يتقدم الليل وما من بادرة بنوم آت .

انه يغادر الزنزانة ، يتجه الى دورة المياه بدون قلنسوة سوداء ، يعود محملقا الى السماء ، الى النجوم ، الى النيازك المارقة ، الى النقاط الكونية المضيئة المتحركة على مهل . ينزل الدرجات الحجرية العتيقة ربما يرى العربة داخل الفضاء ، تتمدد

الظلال ، يبدو المكان غريبا ، وكأنه يقود فى عالم آخر ، يقترب أحدهم . يخشى طلقة مفاجئة ، ربما قتلوه فى اللحظات الأخيرة بحجة محاولته الهرب ، انه الضابط الكبير ، ذو الشارب الكث ، الآتى من المدينة .

— انت لم تنم .. أنا أيضا أرق ..

يقول ان المكان فظيع ، تحوم فيه وحوش غريبة ، لا يدرى من الذى اختار هذا المكان ، لابد أنه شيطانى الخيال ، ان حسن سيره وسلوكه سينقذ الضابط والجنود والحراس . يضيق بهذه اللهجة ، كأنهم يحملونه مسئولية بقائهم هنا ، يسأل عن أخبار العربة ، يجيب الرجل قائلا ان جهاز اللاسلكى لا يعمل الا فى السادسة صباحا ، وسوف تجىء الأخبار مع شروق الشمس ، لو أن العربة جاءت ...

مع بداية النهار تهلل الحراس الثلاثة . حملوا الحقائب . قال ضابط شاب إن السيارة على بعد ثلاثين كيلو مترا ، تم اصلاحها خلال الليل ، لكن الضابط فضل الحركة بعد الفجر ، يضحك الضابط الشاب ..

— الحقيقة انك ستفرج عنا ..

لو ان العربة جاءت أمس ، لما داهمه هذا الضيق ، لكن اليوم ولى ، فات الكثير ، ولم يتبق الا القليل ، أثناء تحقيق القضية ، فى السجن الرئيسى اعتاد رجل من الجنوب أن يسأل عن الساعة ، يطلب تحديد الوقت بالدقيقة ، يتنهد قائلا انه لو خرج الآن لأمكنه الاستفادة من بقية النهار ، ثم يستفسر عن الساعة ويطلب الدقة ، صاح أحدهم ، لماذا تسأل عن الزمن ، لماذا تسأل عن الدقائق والثوانى ، اسأل عن السنوات .. أنت محكوم عليك بتأبيدة .

يظهر ذو الشارب ، يبدو مبتسما ..

— .. لا تغضب .. انفجر اطاران والسيارة لا تحمل الا اطارا احتياطيا واحدا .. عرضت ترحيلك فى أحدى سيارات السجن لكنهم رفضوا لأن

السيارات مخصصة كلها لاخلاء المكان بعد رحيلك . لا تضيق بنا بسبب يوم أو يومين ..

آه .. لو جاءت العربة ..

فى السادسة مساء ...

.. جاءوا اليه بغذاء دسم ، سمك مقلى ، وهذا نادر فى السجون ، وفاكهة طازجة ، وكوب شاى ، وهذا من الممنوعات التى لم يتذوقها ، أغفى ، وعندما استيقظ رأى الحراس الثلاثة ، أصروا على نقل الحقائب عنه ، للمرة الثانية ينزل ، بعد الثوانى ، يجىء ضابط آخر لم يره من قبل ، يقول إن جهاز اللاسلكى التقط اشارة على سبيل الخطأ ، مرسلة على نفس الموجة ولكن الى أحد مواقع الجيش ، سوء تفاهم ، لا بأس ، فى اليوم التالى يقول ذو الشارب ان ثمة عربة أخرى تحركت من العاصمة ، فى اليوم الرابع حمل الحراس حقائبه ، نزلوا ، نزل معهم ، انتظر ستة عشر ساعة ، ثم جاءوا ، حملوا الحقائب ، عادوا به الى الزنزانة ، لم يلتق بأحد ، لم يظهر ذو الشارب أو غيره . فى اليوم السابع أبدى ذو الشارب تأثره . انه يقدر مشاعره تماما . انه يعجب لهذا الموقف الغريب الذى يواجهه لأول مرة طوال خدمته ، يعرف التوتر الذى يسببه انتظار الرحيل ، لكن عليه أن يتذكر انه هو أيضا يود العودة الى أولاده القلقين عليه ..

الحقائب لا تزال مغلقة ..

.. فى صباح اليوم الحادى والعشرين استيقظ وعنده دوار ، تلين الأرض وتتميع ، ترتجف أصابع يديه ، وكان باستطاعته أن يشعر باستدارة عينيه فى محجريهما. يظهر الحراس الثلاثة .. هل جاءت ؟ لم يستطع أن يبقى السؤال مكتوما ، خجل من لهفته ، لكن أحدهم يومىء ..

— نعم .. وتنتظرك فى الفناء ..

أخيرا ، اذن تعين اللحظة الأخيرة بالفعل ، سبب مادى الى تأخيرها ، ربما اختلفوا حول قرار الافراج عنه ، ربما تعمد أحدهم تعطيله ، ربما حدثت اعطال حقيقية . لكم ظلم ذو الشارب ، والضباط ، مرت به لحظات تساءل نقية تجاه هؤلاء الحراس ، يقترب من الحقائب ..

— لاداعى .. سنلحقك بهم .. هناك اجراءات روتينية قد تستغرق وقتا قصيرا ..

.. داخل الفناء تقف العربة ، عربة قوية المظهر ، اطاراتها خشنة ، شد اليها خزانات البنزين الاحتياطية ، فوقها لفات قماش سميك وعصى خشبية طويلة .

— أخيرا .. أخيرا وصلت .. مبروك ..

يبدو ذو الشارب متهللا ، يقول إن التحرك سيتم فورا ، بدون أى تأخير ، وانه سيرجع فى نفس السيارة معه ، يصمت لحظات ، ثمة اجراء عادى ، خطوة صغيرة ، انها مجرد قصاصة صغيرة من الورق بها سطرين . عليه اختيار الكلمات المناسبة والصيغة التى تروق له ، مجرد معنى يطمئن فيه القائمين على الأوضاع

انه ينظر الآن على مهل الى ذو الشارب الكثيف ، ينتهى ركضه الطويل عبر الأسابيع الثلاثة ، ينتهى القلق والتطلع الى مساحات السماء البعيدة ينتهى الاستمتاع بالطعام الساخن الفريد ، المقدم فى غير مكانه ، يتذكر أيام التحقيق ، عندما كانوا يغطون رأسه حتى الرقبة بقلنسوة سوداء ثم يدفعونه الى الجرى ، الجرى ، ثم التعثر فجأة فى حبل ممدود . أو الاصطدام بجدار ..

يبسط ذو الشارب راحتيه . لا .. لن يدعه يسىء الظن ، يعرف تماما مدى

حساسيته لكتابة أى تأييد ، أو استنكار لموقف سابق اتخذه ، انه ليس بهذه العقلة ، ان من يتحدث اليه ليس رجل أمن ، انما عقلية سياسية تعرف قدر الرجال ، وتعطيهم حقهم ، المقصود معنى يطمئنهم من ناحيته ، له اختيار الألفاظ ، والشكل ، انه لم يكذب عليه . قرار الافراج هاهو .. لينظر .. ليمسكه .. لم يعد سرا ..

انه يحول عينيه ، الى المكتب الرمادى ، الى بقع الحبر الباهتة . الى البساط الحائل الموشى بنقوش باهتة غابت تفاصيلها كأحلام لا تثبت فى مواجهة الوعى . انه ينظر الى شريط الأرض العارى قرب الجدران . الى النافذة المستطيلة . لايتوقف عند العربة ، حتى مكان وقوفها اختاروه بعناية ..

تتغير نبرات ذو الشارب الكثيف ، يمد يديه مستندا الى المقعد ، يقول انه سيريح ضميره ، ليصغ اليه جيدا ، انه لا يتحدث الآن كرجل مسئول يحتل منصبا حساسا ، قرار الافراج .. ليضعه جانبا ، القضية .. ليلقها وراء ظهره ، ملعون من يحتل أعلى المناصب أو أقلها ، ان مايعنيه الآن هذا العمر الذى يراه أمامه ، السنوات التى تذوى . انقضت نصف المدة على خير ، انقضت وهاهو يقترب من الخمسين ، صحيح ان حياته الخاصة تأثرت ، لكن لا أسف على من لم تقف الى جانبه .. انه يأسف ، يأسف حقيقة للخوض فى مثل هذه الأمور ، هاهو قرار الافراج .. لكن هذه القصاصة جزء من الاجراءات والاجراءات لابد أن تتم ، اذا لم يكتب السطرين سيقضى بقية المدة ، يعنى سيخرج فى الخامسة والستين ، سيخرج هرما ، كهلا ، جف فيه رحيق الحياة ، وربما أعيد اعتقاله مدى الحياة بعد انقضاء مدة الحكم .. هل تساوى هذه الحياة هذه القصاصة .. انه يتكلم الآن كانسان يعرف قيمة الحرية ..

يقوم واقفا ، لينته هذا الموقف . يود الانفراد بنفسه ، يود العودة الى الزنزانة ، بعد ستة من سجنه جاءوا اليه ، طلبوا منه ارسال برقية تأييد ، لا يذكر الضابط

الذى جاءه وقتئذ ، قال له انه لن يرسل أى برقية ، انه سيقضى مدة السجن كلها ، لابد أن يعرفوا ان هناك خصما لهم لايزال ، وان كان مقيدا على بعد ألف كيلو من الوادى . عندما جاءوا اليه ، قالوا ان كل زملائه أبرقوا وخرجوا بالفعل ، لم يتبق الا هو بمفرده فى هذا الحصن الموحش ، هز رأسه ، اتهموه بالجنون ، توعدوه ، هددوه ، لكنه لم يصغ اليهم ، لبق بمفرده . لابد أن يعرفوا انه ...

يضحك ذو الشارب ، يضحك حتى لهتز جسده .. ، من هم الذين يجب أن يعرفوا ، هل يتصور انهم يفكرون فيه ، أو يعرفون بوجوده ؟ ان مشاغلهم بلا حصر ، وليس لديهم ثانية واحدة ليتذكروه . انه ميت بالنسبة لهم ، لا وجود له ، ان هذه القصاصة لن تصل اليهم ، لن يقرأوها . انها مجرد اجراء ، يخفض صوته ، يميل تجاهه ، يعده بانها ستمزق ولن يطلع عليها أى مخلوق .. بل يعده بما هو أكثر ، سيمزقها أمام عينيه بمجرد وصولهما الى العاصمة ..

لا يرد ، يتجه الى باب الغرفة ، أحد الجنود ينظف السيارة ، يسرع ذو الشارب الكثيف اليه ، يمسك ذراعه ، يقول انه لن يتحدث اليه من أجل نفسه ، انما من أجل مئات الرجال الذين يعيشون هنا لادارة السجن الذى لايوجد به الا هو . كل منهم يود العودة الى بيته . الى أولاده . كل منهم يقضى هنا ستة شهور متصلة ، هل هذا عدل .. اذا كان يدعى ان لديه الاحساس بالآخرين ، وانه يضحى من أجل الذين لم يعرفهم ولم يعرفوه ، فليضحى من أجل هؤلاء .. صحيح انهم حراسه .. لكنهم بشر ..

لم يتوقف ، يتجه الى الدرج معتصما بصمت فادح ..

يقول ذو الشارب انه يعرف مقدار وطنيته ، ان بقاءه هنا يعطل استلام الجيش للسجن الذى سيتحول الى موقع هام ، هل يقبل ان يعيق الجيش عن أداء مهامه .. لا .. لا يظن .. ان شجنا غامضا يلفه الآن ، شجن يشد الأزر و يقوى العضد ، تلفه ظلال وتدثره ، يضوى فى عتمة الذكريات وجه بعيد لم

يستعده منذ سنوات ، حبه الأول ، كانت تسكن على مقربة منه ، بداية العمر ، يرى وجهها واضح الملامح ، شعرها الملموم فى ضفيرتين ، وملامحها التى تحوى تساؤلا مستمرا ، أو دهشة بريئة ، كان يراها فى لحظات الخروج الصباحى ، يذكرها مقترنة بأغنية تتحدث عن الزهور ، صوت ليلى مراداللؤلؤى، صوتٌ الزنين ، والصدى ، تتداخل الملامح ببقاياها‌ين هى الآن ، منذ سنوات بعيدة قال أحدهم انها سافرت الى احدى المحافظات وانها انجبت طفلين ..

يحيطون رأسه بالقلنسوة ، يسبه الحراس ، يهددونه بالقتل ، سيبدو الأمر وكأنه انتحار ، قبل تغطية عينيه رأى ذو الشارب الكث واقفا ، يداه أمام صدره ، وقفة جافة ، بغيضة ، تنفى كل لين تظاهر به ، يدفعه أحد الحراس ، يتعثر فوق الدرج القديم . يطل وجه المحبوبة القديمة . يعتصم بذكرى رعشات القلب ، ويكاد أن يمسك بمذاق الرحيق الأول ..

١٩٨٠

المرصد

.. انه أكثر اهتمامنا بعد تجهيز المنظار الرئيسى ، وضبط زواياه ، تلك أيام اليقظة ، وليالى الغيوم ، والنجوم الباردة،عندما يجىء المذنب فى المرة التالية لن يراه العاملون فى المرصد الآن ، كذا احفادهم ، ستذكر الزيارة الوشيكة فى السجلات العلمية ، لم يظهر الا مرات معدودة ، رصده الفلكيون الصينيون عام ٨٧ ميلادية ، ثم عاد أيام وليم الفاتح وأوقع الخوف فى قلوب جنده . وتلك المرة الثالثة ، أحاسيس غريبة تولد داخله ، لم ينتبه اليها فى البداية لكنه رصد دبيبها منذ أيام ، انه يعيد اكتشاف ماضيه . سنوات عمره التى قضاها هنا فى ذلك المكان النائى . أقصى نقطة مرتفعة فى البلاد ، وأقرب مناطق الأرض الى السماء ، يقع عند حدود الكون الغامض .

كان المكان موحشا فى البداية ، القبة المعدنية وحجرات خشبية ، تغيرت أشياء عديدة خلال الثلاثين سنة الماضية . سافر الى مراصد أخرى . تطلع الى التحام النجوم الوليدة ، رأى التهام النجم الأكبر للنجم الأصغر ، وسجل شيخوخة المجرات ومروق الشهب ، وزع أيام عمره فوق الجبال البعيدة عن كل عمران ، كثيرا ماقالوا له فى مراصد البلدان الأوروبية انهم يحسدونه لصفاء السماء هنا طوال العام ، انه يجلس الآن عند الطرف القصى من الحديقة المحيطة بالقبة ، يبدى الأغراب دهشتهم لنضارة حشائشها النابعة من صخور الجبال الجيرية ، تتباطأ الشمس فى الرحيل ، بعد قليل ستتوهج الزهرة فى الأفق ، تنفرد بالفضاء ، عذراء وحيدة متألقة . ثم تتوافد النجوم من الأعماق السحيقة . يشعر براحة لانه نال كفايته من النوم استعدادا للسهر ، لن يغمض له جفن حتى ترحل النجوم

والكواكب ، وتبقى الزهرة وحيدة قبل أن يطويها النهار .. من يدرى ، ربما ظهر المذنب العظيم تلك الليلة ..

يقترب مساعده الأول ، لم يتجاوز الثلاثين ، استعداده لا بأس به ، عيبه الوحيد انه لا يطيق البقاء بعيدا عن المدينة ، يقول ان اشارة وصلت من العاصمة ، مدير المصلحة يبلغه تحياته ، ويخطره بان وفدا صحفيا سيزور المرصد لاعداد تحقيق عن المذنب وتصويره ان أسعدهم الحظ لا مانع لدى المصلحة من مقابلتهم بشرط الرجوع الى المسئولين أولا ، يضحك المساعد قائلا ان المدير يحرص على الظهور فى الصورة دائما .. يرتد وجه المساعد جادا اذ يقول ان المدير ينوى زيارة المرصد مع الصحفيين ، انه يريد اظهار نشاطه للوزير أملا منه فى الحصول على درجة نائب وزير ، وهذا سيترتب عليه فرق كبير عند احتساب المعاش ..

يهز رأسه متأنيا ، لا يبدى رد فعل واضحا ، لم يلتق بهذا المدير كثيرا ، انه لا يغادر مقر المصلحة الا نادرا ، يهتم بالمناخ وتقلبات الجو أكثر من اهتمامه بالنجوم . رحم الله المدير السابق ، ارتقى من أصغر المناصب ، لم يدخل المصلحة غريبا ، كان ينادى أصغر العاملين باسمائهم ، لم يكف عن النظر عبر التليسكوب كأى باحث ناشىء ، لكن المدير الحالى لا يعرف طرق ضبط الزوايا ، انه قريب لاحدى الشخصيات ، ولم يتول المصلحة الا للحصول على الدرجة ، لكنه برغم جهله يمكنه توجيه اللوم اليه ، وربما عرف تعلقه بالمرصد ، وحرصه على فرصة العمر هذه ، انتظار المذنب ، عندئذ يأمر بنقله الى العاصمة بحجة الاستفادة من خبرته ، لن يطيق اجراء كهذا ، لن يحتمله والمذنب على وشك التمدد والتوهج . فرصة لن تتكرر الا بعد عدة قرون تجىء زيارة المدير فى غير موعدها ، لكن يجب الاهتمام بها ، ان مكاره تحل به وضيق.. انتزعه من تأهبه واستغراقه ، ولحظات انتظار الظهور المفاجىء ، يقول المساعد أن الدفاتر ستراجع ، وان هذا المدير يولى أهمية خاصة للفواتير ، وللمنصرف ، والمتبقى وأوامر المشتريات ، يقول انه يراجع بكل دقة دفاتر الحضور والانصراف واجازات العاملين ، وأحيانا يصحب مدير

المستخدمين معه ، لكن المؤكد انه سيجىء بمدير المعهدة لجرد كل كبيرة وصغيرة .. يلمح المساعد فى ضرورة مراجعة بعض الدفاتر الحسابية الآن ، من يدرى .. ربما جاء غدا ، يضطر الى مفارقة موقعه وانهاء جلسته ، يتجه الى حجرة المكتب ، الأرقام عديدة ، التواريخ متباعدة ، صور الفواتير ، المشتريات متنوعة ، المكانس لزوم التنظيف ، جرادل المياه ، ومطهر لدورة المياه ، وألواح زجاجية بدلا من تلك التى كسرت ، ورزم ورق أبيض ، ورزم ورق مسطر ، وعلب كربون ، وغيار للآلة الكاتبة، وعلبة دبابيس مشبك ، وعلب دبابيس ابرة ، وعلب دبابيس لآلة التدبيس ، وثلاث زجاجات حبر ، الفوارغ موجودة ، والمعهدة فى حاجة الى اعادة الجرد ، ان الليل يتقدم ولابد أن يقلع بعينيه عبر الكون ، يجب الا يغيب عن الفضاء ، أن الحسابات العلمية عاجزة عن تحديد اللحظة والساعة والليلة ، وهو يحلم برؤية ميلاد المذنب لحظة اطلالته ، لكن المساعد يرجوه أن يوقع هذا الكشف ، أن يراجعه قبل توقيعه .. يخرج من المكتب مجهدا ، مضطرب البصر ، لو انه قضى الوقت كله فى الرصد ، لو انه لم يدخل الى المكتب ، كان المرصد أحق بهذا الوقت الذى انقضى ، انتزعه المساعد انتزاعا ، لماذا لم يضرب عرض الحائط بتلك الزيارة وما تقتضيها من اجراءات ، لماذا ؟ ان لعابه معلق فى فمه ، لم يتح له الوقت الكافى للارتواء ، للتجلى ، تلك لحظات لن تتكرر ، والتفريط فيها صعب على النفس ، لكن هذا المدير ربما اتخذ قرار بنقله ..

انه يعاود التطلع الى السماء ، الى ثروة الليل المتناثرة ، تشمله رعدة اذ يتخيل اطلالة المذنب ، يبدو الليل سهلا ، خاليا من الغيوم ، لكن للشتاء تواجدا فيها يلقى بعمقه على الأفلاك ويخفف من ألق الشهب ، لا نهائية الفضاء تبعث صورا بعيدة واسرارا لا حصر لها ، انه الآن فى التاسعة والخمسين،تزوج فى الثلاثين ، ثم أصبح وحيدا فى السابعة والثلاثين ، منذ ذلك الحين يقضى معظم أيامه هنا ، يضم المرصد أربعة عشر . يبعد عن أول نقطة مأهولة بتسعين كيلو مترا ، خمسون منها عبر الصحراء والأسفلت ، وأربعون طول المدق الوعر الذى يرتقى الجبل . مدق يؤدى الى أسرار الليل ، والمسافات القصوى ، والكواكب الدانية ، فى

الشتاء يتم تخزين الطعام والأدوية خشية السيول التى تقطع الطريق ، لا يوجد موضع ممهد لنزول الهيلوكبتر ، تطل نافذة حجرته على الوادى السحيق الأجرد الوحشة الغبراء التى تبدأ مع نزول العصر وتعب النهار العفى ، تواتيه رغبة فى البقاء صامتا ، والبعد عن أى حوار ممكن ، يشعر فى النهار أن الكواكب تنتظره ، وأن الليل سيجمعهما ، لا يبدد ضيقه الغسقى الا مع اكتمال الليل ، تنمو الرغبة للوصول الى الأعماق النائية . ويأسو لانه سيرحل عن الدنيا قبل اكتشاف هذه الأغوار السحيقة . ومعرفة مايخبئه الغيب ، فى الليل ينتظر المجهول ، حتى فى السنوات التى لم يكن متوقعا فيها ظهور المذنب يرصد اصداء نجوم احتضرت منذ ملايين السنين ولازالت أنباءها تتردد . فى مكان ما من الليل تتوهج الشمس لم تكن بغاربة عنه أبدا ، الليل غنى ، خصب بالتوقع ، بكل لحظة مذاق ، واحتمال ، ومفاجأة ، وهمسات مجهولة المصدر ، أما الزهور فلا تتفتح الا فى كنفه ، الرياح تخترق المكان مصحوبة بصفير وضجيج وصدى . متابعها فى أعماق الكون وليست فى كوكب الأرض ، ألا تبدأ الخماسين فى نفس الوقت الذى تهب فيه عواصف المريخ ؟ لبعضهما مظهر انثوى ، حى ، ولوهج الأخرى جرأة الذكورة . يتوحد مع التكوينات المتفجرة ، ويشكو لها من ابديته الموقوته ، التى لن تطول ، وخلو الدنيا منه يوما ، من يدرى .. ربما تعى النجوم ، وتتعاطف الشهب ، وعندما يعود المذنب بعد قرون سبعة يرثيه بشكل ما ، انه يتألم ، من الظلم ان يحال الى المعاش . والليل ملىء بعد بالأسرار ..

يقول المساعد ان المصروفات النائية فى حاجة الى اعادة نظر ، يوجد فارق بين المنصرف والرصيد الأساسى مقداره جنيه وربع ، ان الفارق بالزيادة ولكن الزيادة مثل النقص فى الحسابات الرسمية ، انه يرجوه التوجه الى المكتب لمدة دقائق حتى يمكن ضبط الدفتر . ربما تأخر شراء شىء ما أضيف على سبيل الخطأ ، من الأفضل الانتهاء هذه الليلة لأن ما يجب مراجعته كثير ومتعدد . ثم ان الشواهد تقول بقرب زيارة المدير ، بل ربما تمت غدا ، يصحب المساعد الى المكتب مرة أخرى تنتزع منه لحظات ثمينة ، لكن ماذا يفعل والظروف طارئة ، اضطر الى ان

يدقق ، يجرى عمليات الطرح والجمع والضرب . ثم المقارنة عندما فارق المكتب اتضح له أن ساعة بأكملها انقضت ، يضيق ، لماذا لم يترك وشأنه ؟ كاد أن يهب فى المساعد . لكنه اتهم عذرا ، عندما جاء مساعده منذ عام أبدى دهشته لوحشة المكان ، سأله .. كيف قضى هذه السنوات كلها هنا ؟ ، لم يشأ وقتئذ اغضابه ، قال ان القاعدة جرت على قضاء فترات معينة هنا ، لو وجدت وساطة قوية فلن يتجاوز الأمر أسابيع قليلة . قال إن ظروف العمل لا مثيل لها فى أى مرصد بالعالم ، صحيح ان المعدات قديمة ، لكن الجو صحو ، وفى أقصى أيام الشتاء لا تتعكر الرؤية ويظل الكون كالمرآة المجلوة . قال إنه من الأفضل تعود المكان حتى لانعذب أنفسنا . قال ضاحكا إن القادم للعمل هنا يبكى فى أول يوم لوصوله ، ويبكى أيضا يوم رحيله . بعد أسبوعين قال المساعد إن المكان منعزل ، والتفتيش عليه نادر . ولو مضى الى المدينة لمدة أسبوع فلن يدرى أى انسان . أبدى غضبه ، قال إن قلة الزيارات الرسمية لا تعنى الاهمال ، قال المساعد ان مدته محدودة هنا ، وستقضى على أية حال ، لابد منها لسفره الى باريس ، كشرط من شروط البعثة ، بدا له ذلك عاديا ، لم يحدث ان جاء أحدهم الى المرصد ليبقى ، انه معبر مؤقت ، أما لاجراء دراسة ، أو تجربة ، لكن زيارة المدير تجىء فى ظرف غير موات ، انه لا يخشى مجيئه ، لكن الاحتياطات لازمة ، التشديد على نظافة المكان ، تمهيد الجزء الأخير من الطريق المؤدى الى المرصد ، رص أحلى الزهور من جديد ، تعليق لوحات تحمل شعارات الحزب الحاكم ، شراء فناجين وأطباق جديدة . لابد أن يبدى المدير بعض الملاحظات ، عليه التقليل من أسبابها . واحتمال بعضها حتى لا يعود فيتخذ اجراء يسىء الى نظافة الملف أو يتعمد نقله والمذنب على وشك الظهور ، لا يعرف المدير ، لا يعرف أى مسئول شيئا عن حياته هنا وكيف تمضى ، انه لا ينام الا من الخامسة صباحا وحتى الثامنة . يدخل الى مكتبه قبل الموظفين فى المصلحة ، منذ سنوات وبه جوع الى النوم ، لم يحصل على كفايته أبدا ، لكن فكرة انه مدير المكان ، وانه باستطاعته ان يغفو أى وقت يشاء جعلت مشروع النوم العميق مؤجلا باستمرار ..

عندما انتصف النهار اضطر الى تأجيل قراءاته للبحوث الأخيرة التى أجريت حول المذنبات الشهيرة ، أصدر تعليماته بنظافة المكان ، بدءا من الأجهزة وحتى دورة المياه ، ربما اضطر سيادته الى دخولها ، طلب التزام الدقة فى التوقيع عند الحضور الى مواقع العمل ، وعند الانصراف الى الاستراحة ، الاقامة فى نفس موقع العمل لا تعنى اهمال الدفاتر ، يجب أن تكون الأوراق سليمة ، طلب مراجعة سراكى البوستة .. هل سيشعر أى مسئول بمدى ما يبذله من جهد ، لن يتحدث عن نفسه ، ليت المساعد يقضى بملاحظة حول جهده ودأبه ، فى اللحظات الأولى لن يشعر بهم ، عندما ينتبه اليهم سيعتذر ، سيأتى بحركة من يده ، حيرة ، اضطراب ، سيقول انه آثر البقاء خلف المنظار ، ربما ظهر المذنب فجأة ، تخيل خطاب الشكر الذى سيوجه اليه . تأثر ..

انه يهز رأسه الآن بمواجهة نجمة ثانية تتوهج كأن نبضها الداخلى يعانى شيئا ما ، انه أهدأ لانه خلا الى نفسه أخيرا ، به ضيق لانه لم يستطع القراءة فى الظهيرة ، لكنه سيقضى مدة مضاعفة غدا ، ينظر الى أغوار الليل ، سيصبح الرسو على أطراف النجوم ممكنا يوما ، لكنه لن يرى ذلك ، انه يركز البصر خارج المجرة ، فى الاتجاه الشرقى وهج غريب ، نفاذ ، يظهر منذ عام تقريبا ، ظاهرة عارضة أم بداية حدث قد لا يكتمل الا بعد ملايين السنين ؟ أو من علامات قدوم المذنب ؟ ستتبخر الشمس يوما ، ما يوجعه انه مامن شىء سيبقى كما هو . حتى الليل ستتغير خريطة النجوم فيه . وستبدو السماء فى الوان أخرى،أى أسى ؟ تذكر المقابر ، منذ عشرين سنة كانت تبدو بعيدة عن المدينة ثم تجاوزها العمران ، بدأوا نقلها الى الصحراء،يوما ما سينقلونها مرة أخرى ، حتى الليل له أجل . لماذا يدهمه حزن غض ؟ الأنه غير راض عما قام به اليوم ؟ أم لان لكل لحظة نهاية ؟ لكن لا نهاية للنهايات ، سيفنى ويفنى الكوكب لكنه سيتحول الى ذرات أولية تتحد بعناصر الكون ، لكنها عناصر لاتعى ، لا تسمع ، لاتحس ولا تتذكر ، يلمس المساعد كتفه ، ينتفض ، ماذا ؟ انها أوامر التوريد يجب توقيعها ، وهذا يقتضى ذهابه الى المكتب ، التأجيل غير مستحب ، مرة أخرى يقدم كأنه يمضغ طعاما

ولم يزدرده . كأنه يعانق امرأة وتحول الدفاتر والتوقيعات دون بلوغه ذروة النشوة ؟؟ لا يدرى كم انقضى عندما عاد الى القبة خاطر مباغت يصدع عقله . ماذا لو ان المذنب أطل وغاب فى مرات غيابه هذه ؟ يطرد الخاطر ، وهل هذا معقول ؟ انه يظهر لعدة ليال ، لكن ربما كانت هذه المرة فريدة ، انه يتطلع قلقا ، مضطربا ، لماذا لايرسو فى عينيه بعد أن طال الانتظار ؟ كثيرون يرجعون هلعا من زمن تواجده ، يقولون ان ظهوره يسبق الحوادث الجسام . لا يعنيه ذلك ، همه الآن ان يرى تألقه النضر ، توهجه الممتد ، المشع ، تلك اللحظة الفريدة التى يختتم بها عمله الطويل . وصف القدماء ظهوره الأخير ، وقربه من الأرض ، ومجاهرته بموضعه فى الصباح الباكر بعد تلاشى الليل ، يريد أن يخلف وصفه وصوره . لكن .. ماذا لو انه مر واختفى ؟

ان الرياح تشتد الآن . اهتزازات غامضة مجهولة المصدر . انه يتوحد مع النجوم القصية والشظايا الأبدية . يحاول أن يلملم أطراف الليل ، يحاول تبديد ظنونه ومخاوفه لكن الاشارات الدالة على قرب ظهوره مجهولة . وثانية ، مامن أخبار عنه من مراصد العالم ، انه لايدرى من أى جهة سيجىء .. مامن بشائر تنبىء به .. ومامن علامات تهدى اليه ..

١٩٨٠

• • •

المحصول

.. قبل اقتراب الظل من شجرة الكافور العتيقة ، قبل آذان الظهر ، افترشوا الأرض بجوار الزرع ، جلسة مابعد نضج المحصول ، يوم أو يومان ثم يبدأ الجنى . نجت البسلة من النداوة التى تجفف الأوراق وتمتص اللون الأخضر ، تجعله كالفش ، ان عبد الموجود راض ، ينظر الى الولدين جابر الكبير وعبد العال الصغير ، ثم الى فروع النبات ، لم يتبق مجهود كبير . قرقر الشاى فى البراد ، الصوت الوحيد فى السكينة التى تتوسط النهار . صوت سيارة ، انها سوداء ، تبطىء سرعتها ، تتوقف على الطريق الذى يعلو قليلا ، نزل ثلاثة ، لم يستطع تمييز ملامحهم ، تلفتوا حولهم كأنهم يبحثون عن شىء ما ، مدوا أيديهم عند نزول المنحدر ، بدأ أولهم غير عابىء بالطين المبلول ، قال عبد الموجود لنفسه ، اللهم اجعله خيرا ، ظنهم من المباحث جاءوا للاستفسار عن شخص ما ، أو ضلوا الطريق ، أولهم شاب فى عمر عبد العال ، طويل يبدو انه من مصر ، السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، صافح بقلب ملىء بالترحيب ، لم يبد وجلا من الأكف الخشنة ، بل انه قال ضاحكا ، ممكن نقعد ، ، قال عبد الموجود .. باسلام تشرفونا يابك ، تشربوا شاى ؟ قال الشاب ، آه والله .. باعم الحاج ، سأل عن أسماء الكرماء الأفاضل ، ثم سأل ، هل انتم أصحاب الأرض ؟ ، قال عبد الموجود انهم مستأجرون ، الزرع زرعهم ، وحده هناك عند الساقية القديمة ، أربعة أفدنة ، قال انه لا يستطيع تمييز الذرة من القمح ، رجاهم أن يعذروه ، هل هذه خضر ؟ ، قال عبد الموجود ان كل الأراضى فى هذا الخط تزرع بالخضر لقربها من مصر ، هنا طماطم ، وبصل وبطاطس وباذنجان ، وفى الجبل توجد الفواكه ، أما الأرض هنا فكلها بسلة ، نعم .. رشف الأخضرى

الشاى من كوب الصاج الوحيد بنفس مفتوحة ، هذا مايريده تماما ، هذا اللقاء الذى تم بدون ترتيب ، بدون ميعاد ، سويحه تماما ، وربنا يعمل مافيه خير الطرفين ، قال عبد الموجود انه الخير ، ولن يجىء الا الخير بأذن الله ، ثم طلب من ابنه عبد العال الصغير أن يقطف بعض البسلة للاساتذة ، ضحك الأفندى ، يبدو ان عم عبد الموجود يعرف ما جاء من أجله تماما ، قال انه موظف بأحد الفنادق الحديثة فى مصر ، فندق ضخم سيفتتح أبوابه بعد سبعة أيام ، سيقدم الأكل لأكثر من ألف شخص يوميا ، وعلى الرغم من أن مديريه وأصحابه خواجات الا أنهم يعرفون السوق وما يجرى فى السوق وألاعيب المتعهدين ، قالوا ، لماذا اللف والدوران ، صاحب الزرع موجود ، والنقود موجودة وعربات النقل جاهزة ، والرجال الذين سيحيشون وينقلون موجودون فى الفندق ، هز عبد الموجود رأسه آه .. خير ماعملوه ، تفكير سليم وتدبير تمام ، فى هذه اللحظة وصل عبد العال الصغير ، مال ليضع البسلة بين يدى الأفندية ، تفضلوا ، قال جابر إن هذه الثمار من الدرجة الأولى ، مليئة بالحب ، ومثل هذه لا يعرضها التاجر فى السوق أبدا انما يدخرها لمن يعرفون الأكل وأصوله ، وكل شىء له ثمن . لم تفت الملاحظة الأفندى ، قال ان الفندق لا يهمه السعر بقدر ما تهمه الجودة ، انه فندق عالمى ، صمت عبد الموجود ، التفت الى الاثنين الآخرين ، أحدهما يمسك حقيبة سوداء مربعة لها يد طويلة من الجلد، يبدو الثانى ساهما، بدا له الايسترسل فى التفاصيل العملية ، من الذوق ان يهتم بضيوفه الذين نزلوا عليه فجأة ، تساءل عما اذا كان الاستاذان يعملان أيضا فى الفندق ؟ قال صاحب الحقيبة السوداء ، انه صاحب البك فقط ولا يفهم فى أمور الفنادق ، قال الثانى انه سائق العربة ، نعم .. فى الفندق ، أهلا وسهلا ، وهنا سأل جابر مفتتحا حديث البيع والشراء عن الكميات التى سيطلبها الفندق ، قال الأفندى ، انه سيتم شراء المحصول كله ، ليس الآن فقط ، لكن فى كل موسم ، الخضر طبعا ، قال عبد الموجود مقطبا عينيه«الأرض كلها من هذه الناحية لا تزرع الا الخضر . قال ان مصر كلها تأكل من هنا ، ومن أراضى الجهة الأخرى ، قال ان الأرض قريبة من النيل ، وقريبة من الصحراء ، أشار الى الجهة الشرقية لا يوجد بها عمار بعد البلدة ، اذا

رمح الجمل فى الصحراء يتوه فيها ولا يسمع أحد خلفه . هز الأفندى رأسه ، استحسن السائق مذاق البسلة ، طلب من عبد العال الصغير أن يجنى للاسطى ، قال الأفندى ان هذا لا يمكن بهبط عبد الموجود يده فوق صدره ، الهدية لا ترد .. ثم انها حاجة بسيطة ليدخل بها الأسطى على الأولاد ، تساءل الأفندى عن سعر الكيلو — قال عبد الموجود انهم يبيعون بالجوال ، الجوال ثمنه خمسة أو ستة جنيهات ، سأل الأفندى .. يعنى الكيلو بكم؟نظر عبد العال الصغير الى والده ؟ قال إن الجوال فيه حوالى ستين أو سبعين ، صفر الأفندى ، نظر الى زميليه وكأنه أدرك حقيقة ظلت خفية عليه ، قال إن السعر فى السوق ثلاثون قرشا ، والصنف الممتاز الذى يأكلون منه الآن لا يقل عن أربعين قرشا اذا وجد ، قال صاحب الحقيبة السوداء إنه لا ينزل السوق ولا يعرف شيئا عن الأسعار ، " المدام " تشترى كل شىء بنفسها ، قال عبد الموجود إن المزارع كلها حولهم ، ليبحث بنفسه ، اذا وجد مثل هذه الحبات فى الشمرة الواحدة ، عندئذ يكون كلام آخر ، قام الأفندى منهيا الجلسة ، وقف السائق ، وقف الأفندى حامل الحقيبة السوداء المربعة ، قال انه لن يبحث ، لن يدور ويلف لانه دار ولف فعلا ، ان السعر هنا مناسب جدا ، والمحصول جيد جدا ، الأهم من ذلك كله ان قلبه مال الى الحاج .. الحاج .. عبد الموجود ، ان « اللوكاندة » وجدت مايبحث عنه ، قدم جابر الكبير كيسا به حوالى ثلاثة كيلو جرامات الى السائق ، تساءل عبد العال الصغير بصوت جاد عن عنوان اللوكاندة فى مصر ، بسط الأفندى يديه مطمئنا ، قال إنه سيجىء اليهم بنفسه خلال أيام . سيحضر معه أكياسا خاصة لتعبئة المحصول ، يمكنهم اعتبار الاتفاق منتهيا ، سيدفع نقدا ، لن يكلفهم عناء الذهاب الى مصر لقبض الثمن ، الدخول الى اللوكاندة صعب لانها فى مكان بعيد أولا ، ولان الحراسة مفروضة حولها دائما ، كل ماعليهم ان يوقعوا الفواتير وايصالات الاستلام ، قال عبد الموجود وفى تساؤله موافقة ، ألن تصل النقود الى هنا ؟، أومأ الأفندى ، قال عبد الموجود : اذن كما تشاء .. تمضى انه يرجو من الله أن يعمل مافيه الخير ، لكن أليس من الواجب البقاء الى موعد الغداء ؟ أبدوا اعتذارا ، أبدوا شكرهم ، تمنوا أن يجعله عامرا ، اقترب عبد العال من الأفندى ،

ألا يمكن معرفة اليوم والميعاد حتى ينتظروهم ، قال الأفندى إنه لا يمكنه التحديد الآن ، لكنه لن يتأخر عن ثلاثة أيام ، حاول عبد الموجود أن يصعد المنحدر وراءهم ، لكن الأفندى أقسم أن يبقى كل فى مكانه ، احتكت العجلات بالأرض ، تضاءل الصوت تدريجيا حتى استقر الصمت ، بدا الأمر مفاجئا حتى سأل عبد الموجود نفسه ، أهو حلم أم علم ؟ ما اسم اليوم ؟ الله الاثنين .. الاثنين شرح دائما ، لكن عبد العال الصغير بدد سكون الظهيرة المشبع برائحة الزرع ، ان قلبه يأكله ، الموضوع فيه مافيه ، انه غير مطمئن لهؤلاء الأفندية ، قال أبوه:على العكس ، انه مطمئن تماما ، الأفندى فى منتهى الأخلاق والذوق ، كلامه واضح ، هل يكره الراحة من التعب والغلب ، تعبئة المحصول فى أجولة ، الجرى هنا وهناك للاتفاق مع من يساوى ومن لا يساوى للمشاركة فى استئجار عربة نقل ، نزول السوق فى الليل واليد يقص أطرافهم قصا ، ربما باعوا المحصول فى ساعة ، ربما خاب السوق فيمضون ليلة أو ليلتين ، ثم يبدأ انتظار المعلم ، لم يتحدثوا اليه مباشرة لم يروه الا من مسافة ، يجىء فى عربة ويذهب فى عربة ، يلف رأسه بشال حريرى أبيض ، يمشى الرجال من أمامه ومن خلفه ، أحدهم يجىء اليهم بالفاتورة ، والنقود ، يأخذ لنفسه مافيه النصيب ومن قبله الواقف أمام الميزان والرجل الذى أوجد لهم مكانا ليضعوا فيه المحصول ، هذا يأخذ وهذا يأخذ ، ثم يبدأ بحثهم عن طريقة للعودة من مصر ، قال عبد العال الصغير انه يعرف ذلك كله ، لكن قلبه غير مطمئن لهذا الأفندى ، لماذا لم يجبه بعنوان اللوكاندة ؟ لن يصدق الا اذا رأى العربات قادمة ، والنقود فى أيديهم ، قال جابر ان شكله يشبه ضباط المباحث ، انهم عادة يتظاهرون بالود ، صاح عبد الموجود متسائلا عما يمكن ان تهم به المباحث هنا ، قال جابر ، ربما يبحثون عن قطعة سلاح .. أو يستقصون أثر شىء ما ، ضرب عبد الموجود يده بالأرض ، ياأولاد .... الأفندى لم يطلب لنفسه شيئا شرب معهم الشاى بنفس مفتوحة ، صمتوا .. تصاعدت رائحة القش المحروق ، تثاقلت الظهيرة ، لم تهتز الفروع والأوراق ، تجمدت شواشى الذرة مع أن أمشير يودع أيامه الأخيرة ، فى الليل ردد عبد الموجود انه سيستريح من السوق ، وظلم السوق ، وقرف السوق الذى أكل عمره مقدارا أثر مقدار ، لن

يقترض من القريب والبعيد لينقل المحصول ، ولن يجر السلفيات من هذا وذاك ، انه لا يطمع فى المزيد من النقود ، ما يريده الراحة والبعد عن وجع القلب ، فى اليوم التالى ، قبل أن يصل ظل الشمس الى شجرة الكافور رفع رأسه متسائلا : ألم يأت الأفندى فى مثل هذه الساعة ؟ لم ينتظر ردا ، قام متحاملا على نفسه ، كتفه اليمنى مرتفعة قليلا ، فى مشيته عرج خفيف ، يصعد المنحدر ، يقف محدقا بالبصر الكليل ، يتدلى فكه الأسفل ، من يدرى ربما اضاعوا طريقهم ، المنطقة كلها متشابهة ، وهؤلاء الأفندية من مصر ، فى اليوم التالى استعان بعصا من جريد النخيل لأن الوقفة طالت بالأمس ومفاصله تؤلمه ، فات الزمن الذى كان يرفع فيه « الفأس » ويهوى بها على الأرض من طلوع الشمس وحتى غروبها ، فى اليوم السابع ازداد تدلى فكه الأسفل ، قبل طلوعه : هل ضرب سعرا مرتفعا ؟ هل بان عليه الطمع ؟ قال عبد العال انه لم يطمع وانه أظهر الكرم لكن ربما اتجه الى غيطة آخر ، ربما كانوا يشغلون انفسهم أثناء سفر طويل ، لقد لمح ضحكة على وجه السائق ، لكن عبد الموجود لم يصغ ، بعد الفجر مشى فى الندى الباكر الى نقطة المرور أوصى الجاويش أن يدل العربة السوداء على الغيط ربما يتوقف الأفندى ويسأل ، فى منتصف الليل قام من نومه فرحا ، قال ان أفندى غريبا لم يره من قبل جاءه ، قال .. أنت عبد الموجود ؟ قال نعم ياسيد الكل ، قال الأفندى ان اللوكاندة تأخرت والسبب عدم حضور الزبائن ، لكن الكلام ماشى ، لن تتأخر اللوكاندة عنه أكثر مما تأخرت ، كاد عبد العال يبكى من شدة الضيق وهو يشير الى جفاف الحب ، وفساد المحصول ، عندئذ يضيع ماوراءهم وما أمامهم ان يطولوا عنب الشام ، أو تين اليمن ، عندما جاءت عربة النقل وراح السائق القادم من مصر يتعجل شحن المحصول اقترب منه وسأله عن عربة سوداء يركبها ثلاثة شبان ، ضحك السائق ، ضحك ، تطلع عبد الموجود الى جوف الليل ، ربما ظهرت عربة اللوكاندة ، يأخذون المحصول فى آخر لحظة ، لم يرافق ولديه ، لأول مرة لا يصحبهم ، ربما جاء الأفندى وسأل عنه ، لف على أهالى البلدة ، رجاهم باسم النبى ان يدلوا شاب يرتدى قميصا أسود سيجىء فى عربة سوداء ومعه صاحبه الذى يمسك حقيبة سوداء حقيبة مربعة .. بالضبط مربعة ، ورجاهم ان

يصفوا له الطريق الى الغيط ، أن يصفوا له شجرة الكافور العجوز ، أقدم شجرة فى الخط كله ، الأفندى من مصر ولا يعرف الناحية ، دار على الدكاكين الصغيرة مستفسرا عن عربة سوداء ، توقف أمام رجال ، واعترض طريق نساء ، وطارد أطفالا صغارا ظن انهم يعرفون بمجيء الأفندى لكنهم يخفون ذلك عنه ، وصاح زاعقا على كل سيارة تمرق فوق الطريق ، انه لا يصغى الى نزول الليل ، واخطار الطريق ، من تصدمه عربة لا دية له ، انه يرفع عصا الجريد مهددا جابر الكبير وعبد العال الصغير ، يريد أن يضيعا فرصة العمر ، الأفندى قال إنه سيجيء يعنى سيجيء ، من يدرى ربما جاء مع الليل ، من سيقابله ليتفق معه ؟؟

١٩٨٠

• • •

بين العمارتين الضخمتين اللتين بنيتا فى وقت واحد خلال ذلك العام ، تمتد أرض خربة يحدها سور حجرى قديم فى الجانبين الشرقى والغربى ، يقال انه بقايا القصر القديم الذى قام يوما . اصحاب الأرض يقيمون فى احدى الدول الاوروبية وهذا امر اعيا سماسرة المنطقة لان الطلب متزايد والسعر فى ارتفاع مستمر . لكن الورثة لا يجيئون الا على فترات متباعدة . وعندما يجيئون لا يلتقى بهم أحد ، تظل الشرفات الجانبية للعمارتين على الأرض ، فوقها تراكمت أكوام زبالة ، ويبدو ان مستشفى العظام القريب وجد فيها مستقرا لبقايا الجبس الطبى والغيارات ، بعض تجار الموز احاطوا ركنا من الأرض بأجولة مليئة بنشارة الخشب ، ظللوه بالقماش ، واوراق الصحف . استخدموه كمخزن للموز الأخضر الذى لم ينضج بعد . احيانا يلمح سكان العمارتين بعض الرجال يقفون امام الجدارين ، يتبولون وكثيرا ماصاح الآباء المحافظون ناهين بناتهم عن الوقوف فى الشرفات اتقاء للمناظر المخجلة . احيانا يتساءل السكان بقلق عن مصير الأرض لانها عندما تبنى ستضايقهم ، اذ تتقارب النوافذ ، ويحرح الجار جاره ، وتقل منافذ الهواء . فجر أحد الأيام ارتفع صوت نسائى ، متعب ، يائس ، شاكى . تقول المرأة انها عملت مايجب عمله ، كررت ذلك ، مرات كأنها تريد ان تقرر حقيقة ، أو تذكر آخرين ، او تلفت النظر الى ان ماعملته لا يتناسب مع مالاقته . أحد السكان فى العمارة البحرية انتبه الى الصوت اثناء قيامه فى الليل البارد للوضوء وصلاة الفجر ، ازاح مصراعى النافذة ، تطلع من خلالهما ، لفحهُ الهواء البارد لمح على ضوء مصباح الطريق جسما يرتدى السواد ، يبدو مثل كومة فى الركن المنخفض قليلا عن مستوى الطريق ، وقال لنفسه ، كيف تحتمل العراء وبرد

فى الصباح لم ينتبه تجار الموز . أو اطفال المدرسة الابتدائية القريبة أو العمال الذين يعبرون مسرعين الى محطة القطار القريبة اختصارا للمسافة . لم ينتبه أيضا السكان الى المرأة القصيرة ، النحيلة ، التى سكنت الخرابة ، كانت تتوسد ذراعها وتلصق ركبتيها بصدرها . فى الحادية عشرة مساء سمع شاب فى الثانية والعشرين أنات مكتومة ، وتذكر ان الخرابة مزبلة لبقايا المستشفى وان هذا الجيس ربما نزع من موتى قتلوا بسبب حوادث ، وان عفاريتهم تملأ المكان . فى السادسة صباحا زعقت المرأة بأنها عملت ما كان يجب عليها أن تعمله . قال الرجل الذى اعتاد صلاة الفجر لزوجته ، انه توجد امرأة مجنونة فى الخرابة . استعاذت زوجته من الشيطان الرجيم ، وقال موظف الشهر العقارى الذى يسكن الطابق الرابع ان هذا شؤم . وقالت امرأته ان الليل يمتلىء بالضائعين وانها قرأت فى العام الماضى خبرا يقول ان صبيا تجمد من البرد فى شارع الهرم .

موظف اعتاد الوقوف فى الشرفة الأخيرة خلال الصباح البارد مرتديا ملابسه الداخلية لتمد ذراعيه الى اعلى ثم يثنيهما ، لاحظ المرأة ، سأل نفسه ، كيف قضت الليل ؟

مدير مالى كان يعمل فى أحد البنوك المحلية ، ثم انتقل الى بنك اجنبى فتضاعف راتبه ، واشترى سيارة ، وعاد من امريكا مؤخرا ، ابدى ضيقه وقال ان الانسان فى امريكا لا يمكن أن يسمع هذا الصوت . اثار ظهورها الاهتمام . النساء اثناء نشر الغسيل أو تبادل الحديث اليومى عبر الشرفات اطلن النظر اليها ، خاصة عند زعيقها المفاجىء بأنها عملت ما كان يجب ان تعمله . لم يستطيع السكان والعابرون الا تمييز هذه الجملة ويبدو انها لم تنطق غيرها . فى غروب اليوم الأول شوهد صاحب كشك الشاى والقهوة القريب حاملا بقايا خبز ولفافة ورق

مبللة بالزيت ، فيها طعمية ، وباذنجان مقلى وزيتونتان ، رفعت المرأة يديها فى دعاء صامت ، وقال صاحب الكشك : كلى ياأمى . قال لبواب العمارة المواجهة له ، ان الدنيا مليئة بالبلايا ، وان المرأة فى مايبدو صعيدية ، عندما اصر طفل فى السابعة على سؤال امه طلبت منه ان يذهب ليحل واجب المدرسة ، انها امرأة مجنونة ، ماذا تريد منها ؟ فى اليوم الثالث لم تكن تجلس أو تتمدد فوق أرض مياشرة ، انما افترشت بقايا سجادة قديمةمن فضلات القماش واستندت بذراعها الى صندوق من الورق المقوى بجواره صفيحة زيت فارغة ، ولوح خشبى فيه عجلتان صغيرتان ، وطبق من البلاستيك ازرق اللون ، وكيس مكتوب عليه اعلان عن نوع من السماد ، لمدة يوم كامل ظلت تجلس القرفصاء ، لم تتحرك ، ولم تبدل وضع رأسها الذى استندته الى يدها ، ولم تمد يدها الى الطبق الذى ملأته المدرسة بأرز وبطاطس وغطته برغيف .

.

فى الليل جاء صاحب الكشك ، وضع امامها لفافة ورق . انصرف عائدا الى الكشك فوق الدكة الخشبية الصغيرة جلس شاب فى حوالى الثلاثين ، انيق الثياب ، يرتدى معطفا قصيرا ، ويحيط عنقه بكوفية من الصوف . تطلع الى صاحب الكشك اثر عودته من الخرابة ، اومأ الرجل .. كل شىء تمام ، طلب منه الشاب ان يخفض صوته ، ثم تبادلا حديثا خافتا وانصرف ، ولم يفت منظره بواب العمارة المواجهة ، إذ انه ليس من الزبائن الذين يجيئون ليشربوا فنجان قهوة أو كوب شاى مغليا على قارعة الطريق .

فى هذه الليلة اشتد البرد جدا ، واحكم الناس اغلاق النوافذ ، وتنبأ البعض بسقوط المطر ، وانقطاع النفس من الطرقات ، واوقد حراس الموز نارا فى ركن الخرابة ، وتذكرت المدرسة ان المرأة تنام فى العراء ، وتساءل طالب فى احدى الجامعات الاقليمية اثناء تسرب دفء جسده الى برودة الغطاء ، كيف يمكن قضاء ليلة فى هذا الجو الشتوى الذى لم يحدث منذ سنوات ؟ وقبل ان يدركه

النوم سمع انات متصلة ، ثم صوتها الواضح تقول انها عملت ما يجب ان تعمله .

فى الصباح قبل ركوب عمال المصنع الاوتوبيس الذى ينتظرونه عند طرف الخرابة ، علت صيحاتها ، تبكى وكأنها خرساء ، تجمع اطفال المدرسة الابتدائية القريبة . رفعت يديها تحمى رأسها من الطوب ، اسرع صاحب كشك الشاى ، طارد الأطفال ، عاد اليها ، انحنى لكنها استمرت فى البكاء ، خرج موظف البنك الأجنبى الى الشرفة ، شاهده أمين مخزن بالمصانع الحربية يسكن فى مواجهته . قال لنفسه ان منظره تبدل وتغير ، فى كل يوم ملابس جديدة ، ولا يعود إلا معه فاكهة الموسم ، أو صينية بسبوسة أو علبة حلوى . وفى العطلات يقف بالشرفة يواجه صاحب الكشك اثناء قيامه بغسل سيارته التى اختلف بعض الجيران بشأنها ، اهى ملك خاص له ام انها ملك البنك ؟

اعلن موظف البنك بصوت عال ان المنطقة ليست ملكا للمجانين والمتسولين وانه ما من أحد طلب من هذه المجنونة ان تتصرف ، انه لا يستطيع النوم من صراخها وكلامها غير المفهوم ، انه سيطلب من مأمور القسم تنظيف الخرابة . فى هذه اللحظة قالت المرأة انها عملت ما يجب ان تعمله ، غير ان تجار الموز فى ما يبدو فهموا انهم هدف الكلام ، وإلا فماذا يعنى بتنظيف الخرابة ؟ رفع احدهم صوته كأنه يخاطب شخصا لا يراه أمامه ، طالبا منه الا يفترى . فما من أحد ضمن الدنيا . ثم ضرب كفا بكف وابدى تعجبه مما تفعله الفلوس بالناس . حتى وقت قريب كان المفترى يأخذ الموز بالأجل من الحاج الشرنوبى . الآن لا يعود إلا بالتفاح المستورد .... دنيا !!.

قالت المرأة انها عملت ما يجب عمله . اهتز جسدها طويلا ثم همد ثلاث ساعات . فى العصر جاءت اليها امرأة تعمل مشرفة على قسم التطريز ، تأملتها ، ثم قالت انها تعرض عليها العمل عندها ، انها كانت تبدو عفية ، يمكنها الكنس

والمسح وغسل الأطباق والأكواب . انها تعمل وعندها أولاد صغار ، كل ما تطلبه ان تنظف نفسها قبل مجيئها الى البيت ودخولها على الرجال والعيال . حملقت اليها المرأة رئيسة قسم التطريز وشما اخضر مستديرا فوق جبهتها بتوسطه نقش مثلث ، كذلك وشم آخر على ذقنها ونظرة استسلام لا نهائى فى العينين الذابلتين . قالت فجأة انها عملت ما يجب عمله لوحت رئيسة قسم التطريز غاضبة ، انها مجنونة . وهذا المنظر البائس لن يخدعها ، امثالها يقعدون على تل نقود ، انها تعرف المتسولين وحيلهم . قالت المرأة وكأنها تخاطب غائبا لا يرى انها عملت ما يجب عمله ، فى الفجر توقف الرجل الذى اعتاد صلاة الفجر قبل وضوئه بالماء البارد ، لا .. لم يخطىء . ثمة حديث فى الخرابة ، ان الصمت المصاحب للبرودة يضخم اصطدام الأبرة بالبلاط ، ثمة حديث .. اصغى ، صوت ملىء بالرجاء ، بالضعف . صوت باك ، يرجو ان تعود ويكفى ماحدث . لقد اصبحت فرجة للعالم ، للكبير والصغير . هل يرضيها هذا ، هل تقبل الفضائح ؟

يكفى ما حل بهم بعد ذهابها . قال صاحب الصوت ان هذا يعنى فصله ، انه يرجوها ان ترجع ، لن تلقى ما كانت تلقاه ، ما جرى لن يتكرر . ازاح الرجل الذى اعتاد صلاة الفجر الستائر ، من بين فرجات النافذة ، رأى ضابطا ، لم يستطع ان يعد النجوم فوق كتفيه . قالت .. لا .. لا يمكن .. قالت انها عملت الواجب وخلاص .

تبدل صوت الضابط من الرجاء الى الخشونة المفاجئة . قال إنها تهدد ضرره ، انها لاتحبه ، لا تحرص عليه لابد ان أحدهم حرضها عليه ، عاد اهمس حادا ، علا صوتها ، انها عملت ما يجب عليها ان تعمله . ثم ساد صمت ثلاثى الهمس . فى الصباح لطم صاحب كشك الشاى وجنتيه . السجادة ملوثة ببقع دماء طرية ، تتخللها قطع متجمدة أشد قتامة . اين المرأة ، أى امرأة ؟ لا أحد

يعرفها ، لا أحد يعرف اسمها ، أو بلدتها لكن هذه الدماء .. من يدرى ، ربما جرح حيوان هنا ، ربما اصيب شخص ما بنزيف ، ربما تلف هنا أو هناك لتظهر فجأة . امثالها لا يعرف أحد وجهتهم أو مقصدهم ؟

احاط تجار الموز وبوابو العمارتين وبعض المارة البقايا . صفيحة قديمة ، كوز قديم من الصفيح ، قفص ووسادة ، طبق ازرق،صندوق من الورق المقوى ، كيس سماد منبوش داخله ثلاث صحف قديمة ، وابرة خيط . قال صاحب الكشك انه رآها قبل العشاء بعينيه . سأله تاجر الموبيليات .. هل يعرف اسمها ؟ قال . لا . قال أحد حراس الموز : اذن لماذا يوجع قلبه ؟ لو ابلغ البوليس سيقلب الدنيا ، من أجل ماذا .. امرأة لا اسم لها ولا أحد يسأل عنها . كاد الرجل الذى اعتاد صلاة الفجر والوضوء بالماء البارد ان يصيح متكلما لكنه صمت . انه لا يعرف ملامحها . ليته فتح النافذة وتابع الحديث حتى النهاية . لكن ماذا يقول الآن ، جاءت وكما جاءت مضت .. وبادار مادخلك شر ! !

١٩٧٩

الرؤية

قال إنه استيقظ منذ حوالى خمسة ايام ، فوجىء بثقل جفنيه كأنما استطالا ، وبدا سواد عينيه فى غير مكانه . فى اليوم نفسه لمح فى الطريق رجلا يعرفه ، احد اصحابه القدامى ، زامله أيام الدراسة ، لكنه على بعد خطوة اكتشف انه شخص آخر ، ملامحه مختلفة تماما ، أبدى اعتذارا لم يمنع نظرات شك طاردته بها الرجل ، فى اليوم التالى سلك شارعا جانبيا هادئا امام معرض موبيليا توقف فجأة ، رآها قادمة ، الخطوات السريعة ، واستقامة العنق ، ونظراتها المباشرة ، تلك الجرأة التى اعجبته ، ونفذت يوما إليه . مد ذراعيه مرحبا وكأنه يستعد لاحتوائها،جفلت مذعورة تصرخ ، أدركه اضطراب . ان حوادث الخطف تتكرر يوميا . كيف يبدى اعتذارا ؟ ليست نادية ، ولا تمت اليها بصلة . انتبه الى عامل متجر الموبيليا يرقبه وهو على وشك التدخل .

تساءل الطبيب :

— هل كشفت عندنا من قبل ؟

— حضرتك أعددت لى كشف النظارة !

— هل أحضرته ؟

لا ، لقد غير مسكنه فى العام الماضى . ضاعت أوراق عديدة أثناء الانتقال ومنها الكشف . قال الطبيب ان ذلك لا يهم ، اذ انه اعد ارشيفا دقيقا يضم الأسماء والحالات ، والعلاج منذ افتتاح العيادة . كتب الأسم ثم صاح مناديا : عم حسين . جاء المتمرجى العجوز الذى لم تخف ثياب التمريض ملامحه الريفية ، ووشما اخضر مثلثا على رقبته . نظر من خلال عينيه الضيقتين اليه . لا

يدرى لماذا شعر بقلق . طلب منه الطبيب الجلوس فوق احد المقعدين، متواجهين . وجه الطبيب آلة سوداء مستطيلة الى حدقتى العينين . ضغط زرا فأضاء نورا حادا انبعث من ثقب رفيع ، اقترب حتى لامسته ثمة رائحة خفيفة لم يدر اعادة مصدرها : أهو عرق الطبيب ؟ أم ذلك الحوض الصغير تحت الصنبور ؟ أو تلك الزجاجات التى تحوى أدوية ومطهرات ؟

امسك الطبيب بالنظارة عرضها لضوء قوى . ابدى آهة وكأنه اكتشف امرا ماءقال ان البؤرة ليست مضبوطة . من المدهش الا تصدر منه شكوى طوال عامين . أن العينين سليمتين .

قال :

— ما يؤلمنى يا دكتور رؤيتى كل يوم بضعة أشخاص .. أظنهم اصدقاء .. اتعرف الى ملامحهم من بعد وعندما اقترب منهم اكتشف انهم غرباء .

ضحك الطبيب ، وبدا مرحا :

— تلك شكوى من الزمن وليست من عينيك .

أبدى ابتسامة ، ثم قال بخجل :

— أذكر اننى عرضت عليك النظارة بعد تركيبها و ...

التفت الطبيب اليه ، بدا قاسيا فجأة :

— لا يمكن ان اصرح لك بارتداء هذه النظارة والا فان هذا يعنى جهلى . أدركه حرج ، لكنه وجد نفسه فى موقف الدفاع . قال : اذكر حرصك على رؤية النظارة بعد تركيبها . قلت لى ان كثيرين يهملون هذه الخطوة .

تجهم . استند الى حافة المكتب . قال ان الاصرار على ذلك فيه اهانة . فى تلك اللحظة دخل عم حسين لا يحمل الا الورقة الصغيرة المكتوب عليها الاسم ، بعد ما اعطاها للطبيب ، استدار متجها وكأنه على وشك القيام بعمل ما .

— ما من داع للكذب .. كافة المرضى يلقون العناية هنا سواء سبق لهم الكشف أو عند غيرى .

بدا يخط سطورا فوق (الروشتة) يكتب العلاج بحكم الروتين ، مادام دفع كشفا فلابد ان يصف له الطبيب دواء . كيف يجيبه ؟ لقد كشف هنا بالفعل ويذكر قول الطبيب ، ان كثيرا من الشباب يترددون عند ارتداء النظارات مع انهم يبدون وقورين بعد استعمالها . يذكر هذا الصندوق المستطيل المزدحم بالعدسات ذات الأطر الحديدية ، لكن كيف يواجه هذه الشراسة البادية فى عيون الطبيب والتمرجى ؟

• • •

عندما خرج من العمارة توقف لحظات ، ان شيئا غير عادى قد جرى ، فى الشارع لم يعد الرصيف مستقيما تبرز بعض البيوت الى الأمام ، يمتد الطريق الى مالا نهاية . وهناك بعيدا تبدو عربة ترام كنقطة مع انه يسمع رنين الجرس واضحا لا يبعد عنه غير امتار . ينظر الى الأرض ، هل ازداد طولا ؟ تبدو وكأنها تقعرت ، غير مستوية ، اما قمم العمارات فلا نهائية ، تطاول سماء بعيدة ، نائية ، رمادية . قرر ان يمشى حذرا ، بخطوات قصار ، لكنه تعثر فى مقعد يجلس فوقه رجل يرتدى ثيابا ، ويدخن النرجيلة .

قلب الجمر ، وتناثر التبغ والفحم المشتعل .

— هل عميتم ؟

ارتجف ، قدرت عيناه ان الرجل والمقعد والنرجيلة أبعد من ذلك ، انحنى مبديا اعتذارا ، مد يده محاولا لملمة قطع التبغ ، لكنه صرخ . لقد امسك بقطعة جمر مشتعلة بدت له ملقاة بعيدا . مص اصبعه ، زعق الرجل ساخطا ، انحنى ، راح يمسك الفحم المشتعل بمهارة ، ويلقيه فوق النرجيلة . انه يحملق بعينيه ، يبدو الرجل بعيدا ، يقف على رصيف شارع مقابل لكنه لم يغادر مكانه ، وانفاس الرجل توشك ان تلامسه . مضى على مهل متقدما فى خطى

ضيقة حذرة ، متحاشيا البيوت التى خرجت من اماكنها الى الأمام وكأنها مصارين المدينة . استعد لعبور الميدان الذى اتسع فجأة . صحراء من الأسفلت . تمنى لو التقى بأحد اصحابه فى المقهى ، يشكو اليه الطبيب وما جرى له . ضيق عينيه ، الميدان خال ، خطا مفارقا الرصيف .. لكن .. ما الذى احدث هذا الزحام المفاجىء ؟ سيارات عديدة تتقدم نحوه ، عربة ضخمة من تلك العربات التى ازدحمت بها المدينة مؤخرا ، عربة اخرى ساطعة المصابيح ، اوتوبيسات شبه خالية من الركاب . هل يتوقف مكانه ، ويتركها تتفاداه ؟ لكنه يتجنب النظر الى العربات المتدفقة ، يحيط اذنيه بيديه ، يجرى يجرى ، تلامس قدمه حافة الرصيف المقابل ، يعلو صدره ويهبط . ان رجلا يحمل قفصا رمى فوقه ارغفة ساخنة ، يتوقف ، يتطلع اليه بدهشة ... لابد ان يسأل نفسه ، من اى شىء يجرى هذا الأفندى المذعور ؟ الميدان خال من العربات ، تماما كما رآه قبل ان يعبره ، لكنه ازداد اتساعا وكأنه فلم تعد المصابيح قادرة على اضاءته ، يبدو المقهى نائيا ، لكنه يقطع المسافة حذرا متمهلا . خطواته تصل بسرعة الى قرب المقهى ، الرصيف مزدحم ، الزبائن ينظرون اليه ، كلهم يتطلعون باتجاهه . ما الذى يجعلهم يغادرون الدفء الى الخارج ؟ انتهى برد الخريف ، وبدأ برد الشتاء الذى يثير الوخز فى العظام لا يسمع الضجة المعتادة التى يجب ان تصدر عن هذا العدد من الزبائن . حركاتهم متسقة ترتفع ايديهم بأكواب الشاى والقرفة والكركديه ، ثم تنزل ، هاهو فاروق صاحبه يتطلع اليه بملامحه الهادئة ، المطمئنة ، يخفق قلبه ، يسرع ، يوشك على السقوط . لقد نزل الرصيف بدون ان يراه ، يتماسك . مع اقتراب خطاه تختلط الملامح بدلا من اتضاحها ، حتى سمات فاروق تتوزع بينهم . ماذا ؟ هل قاموا فجأة ؟ كلهم فى لحظة واحدة ؟ متى؟! اين ذهبوا كيف دفعوا النقود ؟ ان رصيف المقهى خال تماما . ربما الزحام فى مقهى آخر بعيد نقله اليه بصره . انه يشعر بأسى مفاجىء ، غامض . ثمة شىء اختل ، لكنه لا يدرى ماهو ؟ ان خوفا يغمره . تفلت المرئيات منه ، يحدث له الآن ماسمع انه جرى لآخرين . استمر به العمر عاديا . لا يشكو مألما ولا يظهر مرضا ، ماذا

جرى؟! أين الخلل ، فى الداخل أو الخارج ؟ انه يقوم ، يتجه الى الصيدلية المواجهة للمقهى ، يوشك ان يصطدم بزجاج الفترينة يغمض عينيه ، يتحسس بيده الطريق الى الباب . يسأل الصيدلى عن طبيب مشهور فى امراض العيون يمط الرجل شفته السفلى تعجبا : وهل هناك من يجهل الدكتور الباز ؟!

• • •

قال الدكتور الباز : ان ثمة خطأ وقع .

ثم تساءل :

— من أعد الكشف ؟

ابدى الدكتور الباز تهكما ، هز رأسه ، سأل :

— اليس هو صاحب العيادة القريبة من العتبة ؟

أومأ برأسه مجيبا :

— من حقك ان تشكو الى النقابة .. هذا الطبيب يجب ان يساءل .

اصغى الى الطبيب ذى السالفين الذين خطهما المشيب . ان وجهه يبعث على الثقة . خط سطورا بالانجليزية فوق ورقة ، طلب منه اعداد النظارة ، ثم طلب منه الا يتهاون فى حقه وان يشكو الى النقابة ، ثم قال :

— كتبت دواء ... لن تجده الا فى الصيدلية المواجهة لمقهى الأزهر .

قال انه يعرفها جيدا ، فهو من زبائن المقهى .

• • •

بعد ما انهت الاذاعة ارسالها اثناء عبوره من دورة المياه الى حجرة النوم ، توقف فزعا . ان جدار الصالة المكسو بالستائر يتراجع بانتظام وكأنه سيسقط الى الخارج ، افلتت شفتاه صرخة فزع ، دق قلبه مسرعا ، لكن الجدار لم

يسقط انما استمر فى الابتعاد ، يحدث شيء غير عادى ؟ هل ينهار البيت ؟ هل يوجد اغراب فى الصالة يحدثون امرا خارقا ؟ كيف دخلوا؟ من سينقض على من ؟ يتقدم حذرا ، يزداد الجدار بعدا ، تتمطى الجدران ، تصبح الصورة نقطة صغيرة ، ان البيت يتسع فجأة . يبدو خاويا ، فارغا ، متناثى الأرجاء . صمت المقاعد منضدة الطعام ، ازيز موتور الثلاجة الخافت ، تصيح امه العجوز بصوت متعب : من ؟ من ؟ ثم تصمت،ينظر خلفه ، الطرقة مستطيلة كممر قطار طويل ، كيف سيعود الى حجرته ؟ كيف سيدخل حجرة النوم ؟ أو الحمام ؟ كيف يقدر المسافات ؟

• • •

أبدى الطبيب الشاب ابتسامة ثم تساءل :

— من ياسيدى ؟؟ الدكتور البلز ؟؟ الدكتور فايز ؟؟ هذا جيل عفا عليه الزمن . قال ان الجيل القديم يعمل وفقا لمفاهيم بالية . والعلم يتقدم بشكل لا يصدق فى الخارج . ما رآه فى السويد يدعو الى الذهول ، ثم قال :

— هل تصدق ان الأعمى هناك اذا اراد ان يعبر الطريق يضغط زرا فى بطارية خاصة معه ، تضيء له النور الأخضر فى اشارة المرور ؟ دعك من هذا .. هل تصدق ان الكلاب .. الكلاب تأخذها شركة متخصصة كل يوم أحد الى النزهة ، لماذا؟حتى لا تصاب باكتئاب نفسى:

ثم قال ان جميع الأجهزة هنا قديمة ، اما الأدوية المحلية محدودة — واثرها ضعيف .

ينظر الى الطبيب الشاب ، انه ابن أحد العلاقات الكبيرة التى ارسلته على

نفقتها الى اوروبا واميركا ، ثم عاد حاملا عدة شهادات . نشر عنه فى اخبار المجتمع كما ان اكثر من تحقيق صحفى اجرى معه .

قال إن هؤلاء الأطباء يعقدون اجراءات ، يطلبون من المريض التردد على العيادات مرات،يضعون له قطرة (الاتروبين) . فى السويد لا يستغرق كشف النظارة الا جلسة واحدة .

قال إن الدكتور البلز أعد له الكشف فى جلسة واحدة .

هز الطبيب الشاب رأسه ، اكد ان الأمر يختلف تماما فى السويد فى هذه اللحظة بدأ يبعد ، يتراجع ، تتغير ملامحه ، جلده يتهدل ، كأن جسده يتميع . كذلك الجدران،السقف يتميع . كذلك الجدران ، السقف يرتفع كمصعد ، النجفة مصباح صغير ، الضوء يخفت ، كأنه بدا تشد الطبيب بعيدا عنه ، والعلامات السوداء والعلب المعدنية التى تناثرت هنا وهناك ، وعينات الأدوية الأجنبية ، وتمثال الجندى الفرنسى النابليونى .

• • •

انقطع عن المقهى وعن الأصحاب تماما ، فى الأيام الأخيرة لخروجه امتلأت الطرقات ببرك متحركة من مياه عطنة . واذ يرفع بنطلونه ويحاول عبورها يفاجأ بنظرات السخرية،مما يحاول عبوره ليس الا قليلا من المياه . الاسفلت أدركته ميوعة . اصبح كموج بحر . تتوقف العربات بلا حد ، تعبر حوله ، تحاصره ، تخدعه الملاح ولكن ، لا اصدقاء،ينظر اليه الآخرون باستنكار . يقضى الساعات محاولا العودة الى البيت ، تراوغه المسافات عندما جاء اليه طبيب المؤسسة بدا متأففا . البيت بعيد . اصغى اليه ، ثم رأى تذاكر الأطباء قال :

— هل هذه التذاكر لك ؟

اجابه بان اسمه مكتوب على كل منها ، كما ان التاريخ موضح عليها ،

ويمكن للطبيب ان يسألهم .
قال :
— لن أسأل احدا .. كل علاج امامى يناقض الآخر . لا يمكن ان يوصف هذا العلاج لشخص واحد . ثم قال بحزم :
— أرنى عينيك من فضلك .
أزعجته اللهجة الرسمية ، لكنه استسلم له . قال الطبيب :
نظرك سليم والنظارة جيدة ، قال انه لا يمكن ان يحتسب يوما واحد له كأجازة اما الفترة الماضية فيجب خصمها من اجازته الاعتيادية أو من مرتبه .

المركب العنقودى

وفى اليوم التالى حاول الوصول الى العمل ، بدت درجات السلم متباعدة ، لانهائية جلس فوق أول درجة زحف الى الدرجة الثانية ، الثالثة،عند خروجه بدا الشارع اضيق ، لا يتسع لمروره . التصق بالجدار متفاديا ضيق المسافة وبركا عطنة ، واحجارا هائلة . وصل متأخرا الى محطة قطار الضواحى ، رأى الرصيف يمتد الى مالا نهاية محاذيا للقضبان التى بدت كخيوط سوداء تتشابك ثم تنفرج . اقترب حذرا من القطار ، العربات بعيدة والفجوة التى تفصل الرصيف عن القطار تتسع فى الوقت الذى يضيق فيه الرصيف ، يصبح كقمة جدار نحيل،ان اضطرابا يغمره وخوفا يأخذه . لو تقدم ، ربما يسقط تحت القضبان . لو ظل واقفا مكانه ربما القاه بعضهم تحت العجلات . اثناء تدافعهم ، وتقدمهم ، ثم تراجعهم ، باتجاه القطار يختلط الجميع ، تدرك الميوعة البيوت المطلة على المحطة ، تبدو مبنية من زجاج سائل يصرخون حوله . لا يدرى به أحد . لا يجرؤ على الامساك بمقبض عربة القطار البعيد أو التراجع الى الوراء .. يقفز البعض من نوافذ القطار،انه يمد يده .. يصبح متلفتا حوله
— من يأخذ بيدى لألحق بالقطار ... من ؟
١٩٧٨

مستحيل ... »

أفرج عن همه فى رفض حاد ، باتر ، لكن الطبيب ظل هادئا ، يده اليسرى فى جيب معطفه الأبيض ، ثم احنوت عيناه الخضراوتان قسوة لم يعهدها فيه ، قال ان ما يطلبه مزعج لكن يجب تقبله برحابة صدر ، كثيرون أبدوا رد فعل مماثل لكنهم اقتنعوا ، ومارسوا ما طلب منهم ، وبالفعل مات الميكروب وانتهى الالتهاب ... لم يدع الطبيب يتم حديثه ، تراجع ناحية الباب وكأنه يخشى أن يولى ظهره له ..

« ما تطلبه لن يحدث .. حتى لو كان العلاج الأخير فى الدنيا .. »

أغلق الباب ، نظر اليه الكمورجى الأسمر ، يقف وكأنه أصغى الى مادار ، نظر الى أحد الجالسين ، قال بصوت مرتفع .. « لا تؤاخذنى على التأخير .. الأستاذ كان عنده تدليك .. »

أقشعر جسده لطريقة خروج اللفظ .. تدليك .. تأكيده على حرف الكاف ، لم ينتظر المصعد ، نزل السلم بسرعة ، خرج الى الطريق والزحام الليلى اللاهى عنه ، يمشى بين الخلق محتويا الميكروب الذى تغلغل فى ثنايا الأنسجة ، تكور وتخندق وتحصن ، بحيث أصبح من الصعب على المضادات الحيوية التى حقن بها حتى الآن الوصول اليه ، عشعش فيه ، شرب شايا فى مقهى ، هل يجىء الشفاء من أمر غير متوقع ؟ يجتنبه هذا الطبيب وأمثاله ، عندما استعاد ما طلبه منه أقشعر ظهره ، سبه بصوت خافت ثم سكت ، تحفز

لتلقى طعنة من الألم ، لكن الوغز لم يتحرك ، كان يخيل اليه ان الميكروب الكامن فى أعماقه يرصد أفكاره ويعيها ، ويجاوبه على بعضها ، ويعاقبه ، خاصة فيما يتعلق بالطبيب ، ربط بين ثورته عليه وتحرك الألم ، أو سببه فى سره ، انه يكرهه الآن ، ما طلبه فظيع أغرقه فى بئر موحلة ، انتظر .. لم ينبض الألم ، لو استمر الهدوء حتى الصباح ربما كان نذير الشفاء ، لو طال الصمت داخله سيغرق الأرغفة واللحم على سبعين فقيرا حول مسجد الحسين ، لو مرت ساعة اخرى ، لو أن الجسم تغلب على الميكروب الذى يسكنه منذ شهور ، فى البداية استيقظ على ألم خفيف ، لم يهتم ، لكن ضيقا ايقظه ، بدأ خفيفا ، لكن غريبا ، لم يعرفه من قبل ، وعندما دخل دورة المياه فوجىء بخيط من لهب بدلا من البول . قبض نفسه ، تكوم كأنه تلقى قبضة ساحقة ، اتسعت عيناه وكأنه يخاطب كائنا غير مرئى .. آه .. مسمار محمى غرس فيه ، لساعات متوالية خاف دخول دورة المياه . تمنى ان يزوره أحد أصحابه ليشكو له ، لكن الباب لم يطرقه انسان ، واليوم جمعة ، كان باستطاعته الاحساس بخمود الحركة فى الطرق ، والتراخى الذى يلف المدينة فى أيام الأجازات ، كل العيادات مغلقة ، اضطر اخيرا الى دخول الدورة ، لكن كل شىء مضى سهلا ، كأن وخزاً لم يكن ، وحريقا لم يشب . فيما بعد لم يهاجمه هذا الألم الا مرة واحدة ، وفيما بعد أيضا بدت له المرة الأولى بمثابة اعلان الميكروب عن نفسه ، عن ولوجه الى عالمه ، عن ظهوره فى دنياه ، فى اليوم التالى جرى وجع من نوع مختلف لكنه أقل حدة ، قرأ اللافتات المعلقة فوق شرفات العمارة ونوافذها ، قرأ اسمه .. استاذ الأمراض الجلدية والتناسلية ، دكتوراه من أمريكا ، زميل كلية .. دبلوم فى .. شقة ٥ ، فى وسط الحجرة وقف الطبيب مبتسما ، بدا ودودا ، هادئا ، بدا وكأنه يتوقع مجيئه ، بل خاطبه باسمه الأول فقط . يومها فكر ، ربما اعتاد ذلك ليبث الثقة لدى مرضاه ، اصغى الى الأعراض ، ثم سأله عما اذا كان قد خالط احداهن ، أكد انه لم يفعل ذلك منذ شهور ، انه يعيش بمفرده ، أحيانا يضطر الى دورة المياه فى المؤسسة ، وقديما قرأ أن ذلك يسبب العدوى . هز الطبيب رأسه ، قال إن الأمر مختلف .. لكنه بسيط ، سأله عن مرتبه ، عن

مؤهلاته ، هل سافر الى الخارج ؟ قال إنه لابد من التحليل . خلال الأيام الثلاثة التى انتظر فيها نتيجة التحليل اتخذ الألم أشكالا عديدة . قبل نومه يتمنى أن يستيقظ ليجد كل شىء قد انتهى ، الضيق ولى ، وكتمة الصدر ولت ، فى الصباح يفتح عينيه ، كل شىء طبيعى ، يخشى تغيير وضعه حتى لا يطرأ جديد ، يتساءل ، هل اختفت الأعراض فجأة ؟ فجأة يسرى نمل داخله ، يدبدب ، يسرع أو يمشى على مهل . ينخس شعيراته الدموية حتى يغادر الفراش فزعاً ، يسود همست ، فى الطريق الى المؤسسة يبدأ حز خفيف يتزايد حتى يصبح شيبها بسلك رفيع جدا أوخز داخله وبقى مشدودا ، تتزايد حدته أثناء قراءته الصحف ، أثناء جلوسه فى المكتب ، فى المقهى ، يفاجأ بطعنات حادة ، موجزة لكنها مركزة ، لكن ماطمأنه قليلا أن الألم المروع الذى فاجأه فى اليوم الأول لم يتكرر ، لم يتصور ان الأمر سيطول هكذا . وان الشهر سيلى الشهر ، عرف الضيق والمرض . نوبات برد أو التهاب لوزتين ، أو مغص ، كله جاء وراح ، بدأ وانتهى ، لكن الأمر استمر طويلا فى هذه المرة . قرأ الطبيب نتيجة التحليل . قال بعد صمت انه ميكروب تافه وضعيف ، ثمة صديد قليل فى البول ، وتضخم يسير ، علاج هذه الحالة يستغرق وقتا ، يجب خلاله الا يسافر ، والا يرتبط بأى شىء ، والا يتفعل ، والا يضيق بما يبعث الضيق ، ثمة حقن ، وأقراص ، وأقماع ، لكن الأهم من هذا كله جلسات الكهرباء ، والتدليك ، انه فى حاجة الى أربعة وعشرين جلسة مزدوجة ، بعدها سيعود كل شىء الى ماكان عليه ، قرض شفته ، قال إن الأمر لا يتعلق بالمائة جنيه ، هذا مبلغ من السهل تدبيره ، لكن .. الا يمكن الاستعاضة عن التدليك والكهرباء بعلاج آخر ؟ لقد مر بذلك اثناء التحليل ، وضع قاس ، مهين ، تحتبس خلاله أنفاسه حتى ليوشك على الاختناق . بمجرد انتهاء جلسته سرى خيط نحيل من لهب ، تجمد وجهه ، عض شفته ، قال الطبيب إن هذا هو العلاج الوحيد الذى لم يخترع الطب بديلا له حتى الآن .. ، الآن .. تمضى الدقائق وهو وحيد فى مواجهة الليل والميكروب المركب العنقودى ، حتى الآن لم ينبض ، لم يهاجمه ، لم يقرض نسيج جلده ، لم يتحرك ليقتات من دمه ، أهى

اغفاءة لن تطول ؟ أم ان الجسم تغلب عليه ، نفس الرجاء الذى أضمره ورددده فى كل ليلة قبل نومه ، ان يتغير الحال بعد صحوه ، ان يعود كل شىء الى حاله ، آه .. لو يعود كل شىء الى ما كان عليه . لكن لو تحرك المركب العنقودى فانه لن يستجيب الى ماطلبه الطبيب .. أبدا .. لن ينفذ ذلك .. انه يلوم نفسه الآن لتركه الطبيب يسترسل حتى يوضح ما يريده . انه يتجرأ الآن ، يتهم الطبيب بالاهمال ، بالقسوة ، الشراهة الى ماله ، انه مريب ، ربما كان متواطئا مع ناس لا يعرفهم يريدون به الأذى ، يتوقف لحظة فى هجومه على الطبيب ، يصغى الى دبيب المركب العنقودى ، لكن .. كل شىء هادىء ، لو مر الغد وبعد الغد ، ما طلبه الطبيب شنيع ، انه يلوم نفسه الآن ، انه المسئول عما وصل اليه ، كانت البداية عندما استسلم للمجلسات الكهربائية والتدليك. الى طريقة الطبيب فى التدليك ، فى الجلسة الثالثة لاحظ انه يتمهل ، يحرك اصبعه ثم يضغطه حتى كاد يشب منها وضع الركوع الواجب عليه اتخاذه ، امره ان يبقى كما هو ، حاول امتصاص الألم بشد شعره والجز على أسنانه ، فى الجلسة الخامسة طلب منه الا يشد شعره ، أن يكتم ألمه أثناء وضع الركوع . ان يخلى ذهنه من كل ضيق ، ان الحالة النفسية تساعد على قهر المركب العنقودى ، يجب أن يعتاد ذلك والا أصبح أحتمال المضاعفات خطيرا ، ربما تسرب المركب العنقودى الى القلب ، أو المخ ، عندئذ .. فى الجلسة الثامنة استقبله الطبيب مرحبا ، قال ان عملية التدليك يجب ان تصاحبها راحة نفسية . طلب منه ان يطلع فوق السرير ، ان يخلع البنطلون والسروال ، لم يرتد القفاز المطاطى ، ولم يدهن أصبعه بالفازلين الذى يساعد على انزلاقه . قال إن المركب العنقودى فى حاجة الى ظروف خاصة حتى يتراجع ، انه ضعيف ، لكنه أطول عمرا ، وأقدر على المراوغة ، انه موجود داخل كل انسان ، فوق الجلد ، فى الأمعاء ، فى الحلق ، فى المعدة ، لكن حساسية البعض تختلف ، وهنا تحدث الاصابة ، المهم ان يستسلم تماما لما يطلب منه ، تحدث الطبيب أثناء وقوفه بجواره ، تضايق من مؤخرته العارية ، ود لو اصغى اليه جالسا ، أمسك الطبيب بجهاز تسجيل صغير ، وضع الميكروفون امام وجهه ، بالقرب من شفتيه ، تراجع خطوات حتى منتصف

الحجرة ، تأمل ماقام به ، بنظرة جانبية رأى ملامح الرضا والراحة فى عينيه الخضراوتين ، طلب منه الا يتحرك بوصة واحدة مهما ازداد الالم خلال التدليك ، طلب منه ان يتحدث بمجرد ايلاج الأصابع ، ان يتحدث بلا توقف . خفتت الأضواء فى الحجرة ثم ثبتت عند مستوى معين ، واتخذت الأشكال احجاما على غير حقيقتها .. صاح .. تكلم الآن .. ، قال إنه متعب ، والدنيا بلا طعم ، كل شىء اختل ، اليقظة كالنوم والنوم كاليقظة ، البهجة تبددت ، والأيام الحلوة افسدت ، وجهه أصبح أكبر مما يبدو عليه ، لم يعد قادرا على الجلوس طويلا بين الناس ، أو تبادل الحديث ، أو المشى لمسافة طويلة ، المركب العنقودى أفسد وخرب ....، هنا دفع الطبيب اصبعه بقوة ، خرج لسانه وتحشرج صوته من الألم ..

لا تذكر المركب العنقودى بالأذى .. استمر ..

قال إنه يحب الناس ، ولم يسع الى الحاق الضرر بمخلوق ..

هنا تمهل أصبع الطبيب ، انزلق داخله الى نقطة أبعد مما وصل اليه ، بدا أكثر غلظة ، قال إنه يتمنى السفر ، وان يرى من لا يعرفهم ، وأن يعيش أيامه بحق ، قال إن العمر لن يتكرر ، واليوم الذى يرحل لن يرجع ..

استقر الأصبع غليظا ، بدأ فى حركة دائرية بسيطة ، بينما قال الطبيب من خلال شفتيه المضمومتين ..

لا تقل كلاما متشائما ..

زاد الوجع ، وبدا الأصبع كأنه مغطى بدبابيس رفيعة . قال إنه يثق فى الطبيب ، ولن يتوقف عن زيارته بعد شفائه ، انه لا ينسى من ساعده ، قال إنه لا يعترض أبدا على كل مايقوم به ...

ضغط الطبيب اصبعه ، كاد يقىء .. « تكلم .. تكلم » ..

قال انه يحب الخضرة ، وشم الهواء فى الخلاء ، ويتمنى النوم مرتاح البال ، قال

إنه يحب أصوات الليل التى تصله من أطراف المدينة ، ويحب أن يهدى الغريب الضال واذا اتيح له الوقت يمشى معه حتى مقصده ، قال إنه غير نادم لان بعض الأهداف حادت عن مقاصدها ، لكنه يتمنى الا يضل ما بقى منها ، قال إنه يخاف الطارق المفاجىء ، وانه يضيق بالوحدة . يهزه مرأى فتاة تمشى بمفردها فى طريق ليلى يبلله المطر ، ولكنه ..

زعق الطبيب وأنفاسه تكاد تلامس الجزء الأسفل من ظهره العارى ..

خش فى الموضوع ..

لم يستطع أن يسأل لبلوغ الألم ذروته ، زعق الطبيب ..

تكلم عن المركب العنقودى ..

قال ان الميكروب لا يزعجه .

ضغط الأصبع ، اقترب الميكروفون أكثر حتى أوشك على ادخاله فى فمه ، اتخذ وضعا منحنيا ليرقب تعبيرات وجهه ، أصبح الجسد الراكع داخل مجال ذراعيه ، يد تقرب الميكروفون من فمه ، اصبعه الأخرى يتوغل داخله ، زعق .. هذا لا يكفى ..

تسارعت دقات قلبه ، تغير حجم عينيه ، اخترقه لسان من اللهب ، قال ونبرات صوته تتحشرج وتتسلخ ، انه ليس منزعجا أبدا ، انه لا يعترض .. لا يعترض على وجود المركب العنقودى ، انه .. انه سعيد ، سعيد بكل مايتم ، ومايجرى ، وليس له أى اعتراضات .. انه سعيد ...

سحب أصبعه متمهلا ، فى نفس اللحظة أغلق الجهاز ، خلع القفاز ، القاه فى وعاء زجاجى ، غسل يديه بسائل تفوح منه رائحة قوية . عيناه تلمعان . قال ان الموقف سيتحسن ، وان حالته النفسية ستساعد على مواجهة المركب العنقودى ، بعد نزوله الشارع ، بعد ذهابه الى البيت ، كان لازال يشعر بالأصبع الغليظة داخله ، وعندما وقف عاريا تحت الدش دق قلبه حتى كاد يقع من

صدره ، أثناء غسله لجسده اكتشف انه اتسع الى درجة مخيفة ، وأن فتحة مضمومة يمكنها أن تمر بسهولة عبر شرجه ، وان مصارينه أصبحت قريبة من الخارج . فى اليوم التالى سعى الى الطبيب فى المستشفى ، لم يجده ، اتصل به عند الظهيرة ،كان نائما ، فى الليل قال انه يرجو علاجا يقبض انسجته .. هز الطبيب رأسه ، قال ان المركب العنقودى تمكن من خلايا دقيقة ، الحالة بمنة ، ثم سأله عن عدد الجلسات ومرات التدليك حتى الآن ، قال انهم عشرة ،اقترب الطبيب ، قال ان عدة عوامل تجعله يطلب منه اجراء عملية التدليك بشكل طبيعى ، مرة واحدة فقط ، ان هذا مؤلم ومزعج ، لكنه لازم للعلاج ، لابد ان ينزل فورا ، ان يبحث عن رجل قوى ، ليس من المهم ان تربطهما علاقة سابقة ..

زعق .. لا .. مستحيل ..

انه يتذكر الآن قامته الممتلئة ، لماذا لم ينقض عليه ، لم يمسك رقبته بكلتا يديه ، الرقبة التى تحيطها دوائر اللحم ، يتقدم الآن الى دورة المياه ، مثانته ثقيلة ، ان دبيبا خفيفا يبدأ ، ذرات رمل ساخنة تشتعل داخله ، لا يستطيع لحظة ظهور الألم لو خرجت نقطة بول واحدة ، يروح ويجىء ، مثانته تضغط ، يستعيد ملامح الطبيب ، يخترقه الألم المضنى ، يزعق مقلصا وجهه ، يتردد صوته فى البيت الذى يعيش فيه بمفرده ،

١٩٧٩

مستحيل .. لن يحدث هذا أبدا ..

.. على المستوى السياسى . !!

.. بعد عمر طويل من النضال قرر أن ينحرف ، أن ينهى المفاجآت الليلية ، والتعبيرات الساخرة على وجوه ضباط المباحث ، والتفتيش ، وتفحص الخطابات الخاصة ، وتجريد المكتبة من محتوياتها ، وتعمد الخبر المرافق أن يدوس بحذائه المتسخ فوق الأوراق باهمال . لينه الاستدعاءات والانتظار فى الغرف الرمادية ، وصوت الرتاج داخل السجون . انه يريد أن يعيش دنيا . ان يستمتع . ان يأمن . ان يكف عن ترقب المجهول . أن يلحق بالفرص الضائعة . أعطى الآخرين سنوات عديدة من عمره . ليعط مزاجه ، اطال النظر لمدة تسعة شهور الى زملائه فى قسم الترجمة ، ملامحهم اخذت كفايتها من النوم الهنىء ، وارتوت من الشبع ، يسافرون ويعودون ، يرتدون القمصان الثمينة ، ويتحدثون همسا فى التليفونات .. لا .. لا رجعة فيما اتخذه واستقر عليه . سينحرف عن رفقة الحاقدين كما يعرفون بين الناس ، تردد اللفظ طويلا حتى لصق بالأذهان ، أصبح يخيف ويرهب ، طوال عمره يدخل السجن ويخرج ويعزل ويفصل ، ويقولون ان ذلك كله يهون من أجل غد أفضل ، ولكن الغد الأفضل لم يأت ، ولم يظهر له أثر . والأيام تمضى ، هل تنتهى حياته هكذا .. لا .. ولا سبيل الا الانحراف عن الحاقدين . لكن كيف ؟

- ٢ -

حقا .. كيف ؟

اسمه مدون فى السجلات ، والقوائم ستظل مهما جرى . كيف ؟ .. لا يمكنه أيضا أن يقف صارخا ، معلنا انتهاء أى صلة تربطه بماضيه ، حتى لو انقطع عنهم

فمن سيغلق الملفات المفتوحة ؟ ثم انه ذو سجل حافل ، ومعاناته يجب الا تروح هدرا ، لكن كيف ؟ انه يأبى اظهار تأييد علنى رخيص . لو امكنه خلق وضع ينسلخ فيه عنهم ويبقى قريبا منهم ، أى يظل محترما فى انظارهم . لكن كيف ؟ . قضى اياما مهموما يفكر ،فى هذه الأثناء اشتد الحر ، وظهرت بشائر المانجو ، وتراوح سعر الكيلو من جنيهين الى أربعة ، وشحت الأنواع الغالية من السجائر ، وتنبأ البعض بارتفاع سعر اللحم ارتفاعا فاحشا ، تخيل نفسه متجها الى أحد الفنادق الكبيرة ليلتقى بشخصية هامة ، وفى ركن فمه سيجار فاخر ، أو رنين التليفون فى النصف الثانى من الليل ، يطلبون منه سرعة التوجه الى المطار للسفر وليقوم بعمله كمترجم فورى فى مؤتمر هام ، القاعات المضيئة ، والكئوس فى الأيدى ، الابتسامات على الشفاه المرتوية الجميلة ؟ . يا سلام .. الوجاهة حلوة بلا شك ، من قال ان البورجوازية متعفنة ؟ كيف صدق ذلك عمرا بأكمله ؟ . مشى كثيرا ، وجلس وحيدا بالمقاهى النائية ، ونقر اسنانه بالقلم ، وعانق أرقا ثقيل الوطأة . ثم اتخذ وجهته الى المسئول الشاب ، انه لم يتجاوز الأربعين ، غزير الشعر ، هادىء كما يبدو من صورته ، لمع بعد ان عاد الى البلاد من غيبة طويلة قضاها فى تلقى العلوم الحديثة ، على درجة رفيعة من الثقافة ، وله دراية سياسية ، ابن عائلة .. طبعا ، ابن الناس ابن ناس ، انه مختلف عن الآخرين ، لم يلق الاتهامات جزافا و .. ويشاع عنه سرا ان لديه ميول حقيقية الى العدالة ، الى المساواة ، وهذا يضايق بعض العناصر الأمنية المتشددة . انه الوحيد القادر على تفهم موقفه ..

— ٣ —

.. بعد ان قدم نفسه ، وطلب المقابلة ، سأله الصوت الهادىء عن المكان الذى يتحدث منه الآن ؟ قال إنه الميدان الرئيسى . عندئذ طلب منه ان يجىء فورا . لم يتوقع ذلك ، خاصة ان ما يريد شرحه لم يتضح فى ذهنه تماما ، لم يفكر فى العبارات التى يجب ان يصيغ افكاره من خلالها ، ادركه خوف ، لماذا لا

يتراجع ؟ لكن المكالمة تمت ، وابقاع الصوت الخافت طمأنه ، ابن ناس فعلا ، فى المكتب الفسيح المجلل بالخشب اللامع جلسا فى مواجهة بعضهما . الحقيقة انه مهذب ، بل مهذب جدا ، ارتاح اليه ، قال بوضوح إنه يرغب فى الراحة ، فى الابتعاد عمن يسببون له المتاعب ، لكنه ليس مبتدئا ، وليس مبتذلا ، انه يريد ان يتراجع على المستوى السياسى ، لكنه لا يشبه هذا الصحفى الذى انقلب فى يوم وليلة من النقيض الى النقيض . هز المسئول الشاب رأسه ، وبسط يديه ..

« لا طبعا .. بالتأكيد أنت مختلف ... »

يطمئن ، يهدأ ، يرتاح ، يقف المسئول الشاب ، انه أطول مما توقع ، لم يلحظ ذلك الا الآن ، يمشى متمهلا ، يستدير ، يمسك فتاحة الورق المعدنية ..

« ماهو الأسلوب الأمثل فى تصورك ؟ »

يحار . لم يفكر فى ذلك ..

« هل تسمح لى بأن أساعدك ؟ »

يومىء موافقا ، يقول سيادته إنه ذو تاريخ طويل يجب المحافظة عليه ، لن ينصحه بالنزول الى الطريق والبحث عن اول مكتب للتلغراف ، أو الاعلان فى الصحف عن رأيه الجديد ، ولن يكون ساذجا الى الدرجة التى يرى فيها ضرورة ذهابه الى ادارة المباحث العامة ، ومقابلة أحد ضباطها ، طبعا معظم الضباط من الشبان ولم يعايشوا تاريخه الطويل ، ولم يعرفوه عندما كافح ضد السراى ، أو الاحتلال الاجنبى ، أو عندما تطوع للحرب ضد الأعداء الذين اصبحوا الآن اصدقاء ، سيحاولون تجنيده كمصدر للمعلومات ، لا .. لا داعى للانزعاج ، اليست هذه هى الحقيقة ؟ ، بل عند حدوث اعتقالات ، ربما قبضوا عليه لينقل اليهم ما يدور داخل العنابر ، بصراحة ، وهذا كلام خاص جدا ، انه يكره التعامل مع رجال الأمن ..

يشعر الآن انه أكثر قربا منه ، حضوره قوى ، دقيق فى الفاظه ، قال « الأعداء الذين أصبحوا اصدقاء » ، كما أنه لم يقل لفظ الحاقدين الذى أشاعته اجهزة

الاعلام على السنة الناس ، لكن المدهش تعبيره عن كراهيته لرجال الأمن ، ليس من السهل على أى مسئول النطق بذلك ، فلأجهزة الأمن سطوتها ورهبتها ..

انه يقول فجأة بعد اطرائه ..

« رأيى ان تتطرف .. »

« اتطرف .. كيف ؟ »

« حتى تبتعد عنهم بشكل لا يكشف نواياك .. وحتى لا يقال انك مرتد ، خائن ، الى آخر القاموس الذى تعرفه أكثر منى .. تطرف .. انتقدهم .. اتهمهم بالتخاذل .. بالتقاعس .. تطرف .. اسع اليهم .. اجتمع بهم .. انه الاقتراب الذى يصحبه ابتعاد .. تطرف .. ان ذلك مناسب تماما ..

— ٤ —

.. عندما طلعت شمس اليوم التالى كان مجهدا ، لم ينم إلا ساعة أو ساعتين ، سمع آذان الفجر اثناء ذروة قلقة ، نزل مبكرا ، خيل اليه أن احدهم يقف عند الناصية ، يتظاهر بقراءة جريدة ، طبيعى .. هذا طبيعى ان يوضع تحت المراقبة الآن ، شوارع المدينة لم تزدحم بعد ، اتجه الى المقهى الثانى ، احدهم يجىء اليه ، لم ينتظر قدومه طويلا ، انه اصلع يرتدى حلة صيفية منهكة ، عيناه متعبتان ، سجن سبعة عشر عاما متصلة ، كان عاملا لتجليد الكتب ، سلم عليه ثم جرى الحديث حول الاجراءات الأخيرة التى أعقبت التغيير الأساسى ، قطب عينيه وأضفى على ملامحه تجهما ، قال ان الجماعات كلها لم تتخذ موقفا حاسما ، تساءل زميله القديم عن المواقف التى يجب اتخاذها ، قال إن البيانات لا تكفى ، لابد من اتخاذ مواقف أكثر حدة . بصراحة لابد من خطوة واضحة ، مظاهرة مثلا ، قال زميله القديم إن الحركة تتم وفقا لاسس الواقع وليست بمعزل عنه ثم .. قاطعه ، لقد شبع من هذا الكلام ، العمر ضاع فى الحسابات والحذر وانتظار اللحظة الملائمة ، وتبدل علاقات القوى ، سكت لحظات ثم قال إن معظم الآخرين يرتبون أوضاعهم بينما الضحية فى النهاية أمثالهما ، نظر اليه زميله القديم

وكأنه ينتبه الى نبرة غريبة فى حديثه .. ، ماذا ؟ هل ظهر منه مايريب ؟ لكنه لم يتوقف ، قال إن سبب مواقفهم هو حرصهم على مصالحهم ، نعم .. هذا ما يجب الاعتراف به ، لم يرد الزميل القديم ، تمتم بعبارات غير واضحة ، قال مختتما جلسته ان الوقت مناسب لتحرك عملى ، نظر الى ساعته ، يجب الا يطيل الجلوس أكثر من ذلك الى مشبوه قديم ، صحيح ان ظهره مؤمن لكن الاحتياط امر واجب ، تذكر بارتياح الله حرص على اتخاذ ملامح تتناسب مع ما اتفق عليه من المسئول الشاب ، بعد مغادرته المقهى شعر بكراهية تجاه زميله القديم وغيظ ، انه عامل يسكن حجرة قديمة ، يأكل الفول ويقلى البيض فى الزيت ، ولا يعرف شيئا عن الفنادق الكبيرة او الاحتفالات ولا يحلم بالسفر او النساء الجميلات ورصيد مناسب فى البنوك وتدخين السجائر الأجنبية ذات النكهة المميزة ، واذا سجن الآن فانه لا يبدو وكأنه قد غير حياته ، عندما رآه لأول مرة كان يبدو وكأنه ولد بين الأسوار وسيقضى عمره داخلها ، يبتسم دائما ، يروح ويجىء ، يمسح البلاط ، وينظم توزيع الطعام ، ويتصدى لحل المشاكل مع الادارة ، ويسرع مواسيا الى الزملاء الذين ينطوون ويستسلمون للوحدة ، واذا خرج الى الحرية ينغمس فى النشاط السرى ، امثاله هم الذين يجعلون الخطر قائما ، لو كفوا ، لو توقفوا ، لاستقرت حياته ، ولنال كل مايريده من سفر ، وسهر ، ووجبات فاخرة فى المآدب الكبيرة ، صحيح انه لا يشاركهم ما يقومون به الآن ، لكنه محسوب عليهم ، وفى أول زفة يمكن أن يأخذوه معهم ، ماذا يفعل .. ملعون أبوهم ! !

— ٥ —

لانها المرة الأولى التى يتحدث اليه ، فلم يتعرف على صوته فى البداية ، وعندما أدرك انه المسئول الشاب بنفسه ، قال انها فرصة سعيدة حقا ، قال ان الأمور تسير على ما يرام ، وانه قطع شوطا ليس بالهين على الرغم من قصر المدة ، وان موقفه الجديد يتضح شيئا فشيئا امام الجهات المعنية .. هناك امور محددة سيحدثه عنها فى اول لقاء ، اما الآن فليستمر ، بعد نصف ساعة رن التليفون ، انه المسئول

الشاب مرة اخرى ، نسى امرا مهما ، يجب أن يتحدث امام بعض زملائه فى العمل ، عدد منهم له صلة ببعض الجهات المؤثرة ، أى انهم يوصلون الكلام ، ليكن حديثه تعبيرا عن موقفه الجديد ، ومخالف ، لما يقوله أو سيعبر عنه لزملائه القدامى ...

- ٦ -

.. فعلا .. نبهه الى أمر كان يجب الا يغيب عنه ، لا تربطة صلة قوية بزملاء العمل ، اعتاد ان يرد التحية بانتضاب ، واذا بادر بالحديث فليسأل عن الساعة ثم يومىء شاكرا ، لم يحتفظ بساعة منذ سنوات عديدة ، لكن للظرف الجديد متطلبات ، بدأ يفارق مكتبه ويتجول فى الأقسام الأخرى مومئا ، أو متحدثا ، بعضهم ينقل الى مدير الفرع . أو الى مكتب الأمن المحلى ، والبعض ينقل الى جهات أخرى خارج المقر ، جهات امنية ، جهات سياسية . أو جهات ذات أهمية خاصة . ما يهمه اولئك المعروفين بصلاتهم المشبوهة ، حياهم ، دعاهم الى الجلوس . تحدث فى امور عادية . الطقس ، درجة حرارة التكييف فى القاعة الرئيسية ، ميعاد انتهاء تركيب المصعد الجديد ، انقطاع التيار الكهربائى احيانا . صعوبة الاتصال التليفونى بالضواحى ، ثم قوله عرضا ان الأمور ستتحسن كثيرا بعد مرور وقت كاف على التغيير الأساسى ، واتمام الصلح مع العدو . عندئذ يتمهل قليلا ، وكأنه لم يقل شيئا غير عادى ، ثم يستأنف حديثه ، الحقيقة ان الأمور لم تكن واضحة تماما منذ البداية ، نعم ، انه يقول ذلك بامانة ، بصدق ، حقيقة بصدق ، انه لا يخجل ، لا يخاف ، فى البداية كان مترددا ، بل سيقول ماهو أكثر .. لقد تشكك ، بل رفض العملية شكلا وموضوعا — مع مرور الزمن بدأ يقتنع ، بدأ يفهم . بدأ يدرك حقيقة الأوضاع ، جاء اقتناعه على مراحل ، وهذا اعمق من التأييد الفورى ، كان يهز رأسه عند نهاية المقاطع وكأنه يؤكد لنفسه ما يقول قبل ان يؤكده لمحدثه . لاحظ ان أحد العاملين وله علاقة لا تخفى بجهات حساسة كان يصغى اليه صامتا ، عندما استعاد ملامحه فى لحظات

ما قبل النوم ، رأى مالم يره فى نفس اللحظة ، رأى الشك والريبة ، فى اليوم التالى حرص على السعى الى لقائه ، حرص أكثر على أن يبدو اللقاء صدفة فى المصعد ، فى الممر ، أو عند مدخل الدار ، يبدأ الحديث بشكل عادى ، ثم يستأنف الموضوع . لكن بانفعال أكثر ، وتعبيرات أعمق ، غير انه لم يلتق به ، اضطر الى التجول فى ردهات الدار ، ودخول دورة المياه مرات ، الوقوف أمام المصعد ، الطلوع ثم النزول بدون هدف معين ، الامساك بمقابض الأبواب وفتحها ، النظر داخل الغرف كأنه يبحث عن شىء ما ، خشى أن يسأل عنه حتى لا يخبو احدهم فيدفعه ذلك الى التفسير والتحليل ، تعاظم اضطرابه ، لكنه اصبح اهدأ حالا بعد ان اتيحت له فرصة الحديث مع زميل آخر معروف بصلته الحميمة بدوائر اقل اهمية ، لكن الدوائر كلها متصلة ببعضها ..

- ٧ -

صوت هادىء ، يسمعه لأول مرة ، يقول انه مدير المكتب ، انه يبلغه اسف المسئول الشاب لانشغاله فى مؤتمر هام ، لكنه يود ان يبلغه أمانيه ويطلب منه الاستمرار ..

- ٨ -

غريب ، يرتدى قميصا أصفر ، يبدو شعر صدره ، غليظ الرقبة ، سلسلة ذهبية حول عنقه ، يمسك نظارة شمسية ذات اطار معدنى ، يومىء اليه ، يعتذر لانه جاء على غير موعد ، بدون تمهيد ، انه مقدم بقسم مكافحة اعداء الصلح . لم يشأ ازعاجه بطلب استدعاء ، أو حتى الاتصال به تليفونيا ، آثر القيام بهذه الزيارة الخاصة ، ثمة نقطة معينة يود الاستفسار عنها ، لقد شوهد يجلس مرتين فى المقهى النائى الى زملائه القدامى ، تقول الشواهد ان الحديث كان حميما ، ينظر الى الضابط ، فى نفسه مرارة وشدة ، يلفت نظره الوجه الناعم ، الحليق ، والراحة

البادية ، والملاح التى أخذت كفايتها من النوم ، نفس السمات التى واجهها من قبل ، وان تغيرت الشخصيات ، والظروف ماذا ؟ هل يتتبعونه فى الوقت الذى ينأى فيه ويبتعد ؟ هل بلغهم بعض ما قاله لزميله القديم ؟ هل اساءوا فهم تطرفه ؟ هل يأتيه الواقع بما يعاكس اهدافه الآن ؟ يبدو انهم لم يعلموا بمقابلته للمسئول الشاب ، يعرف ان الأجهزة تعمل احيانا بمعزل عن بعضها ، هل يوقعه سوء حظه فى المحاذير ، يعاود النظر الى الضابط الأنيق ، انه فى حدود الخامسة والثلاثين ، لم يكن قد حصل على الثانوية العامة عندما اعتقل للمرة الثانية ، لابد انه تلقى التدريب أثر التدريب استعدادا لهذه اللحظات ، يقول إنه يود التحدث اليه كصديق ..

— ٩ —

لا .. ليس من المعقول ان تنتهى الأمور الى هذا الحد ، فى أوعر الظروف عندما كان منفيا بعيدا عن الدنيا العامرة ، فى قلب الصحراء المسكونة بالعقارب السوداء والثعابين . لم يتعامل معهم ، ازدراهم ، والآن يجلس اليهم ، ويقدم اليهم القهوة السادة ، لكنه لم يسع اليهم ، لقد اتجه الى رجل سياسة ، المسئول الشاب علاقته سيئة بأجهزة الأمن ، ثم ان الضابط هو الذى جاء اليه ، لم يستدعه ، لم يتم اللقاء فى مبنى المباحث ، لكن كيف سمح لنفسه ان يقبل عرض الضابط بزيارته مرة أو مرتين فى الشهر ؟ برر ذلك وقتها بأن المسافة الزمنية طويلة ، وان الضابط غير معروف ، ويجىء اليه ، لا يوجد زميل قديم فى المقر ، ولا يتردد عليه أحد ، أهم شىء ان اللقاء لا يتم فى مبنى المباحث . هذا سبب بدا له باعثا على الاطمئنان ، استدعاه الى ذهنه مرارا ، لكنه لم يهدأ ، لابد من تصحيح هذا المنعطف المفاجىء الذى لم يتوقعه ، لم يفكر فيه ، اتصل بالمسئول الشاب مرة ، مرتين ، ثلاث مرات . لم يجده ، كان مشغولا فى عدة اجتماعات مع اعضاء حزب الأغلبية ، مشغول حقا . ام يتهرب ؟ هل يرفض مقابلته ؟ لكنه يبدو انه اساء الظن ، بعد

أن اتصل اربع وثلاثين مرة خلال ثلاثة أيام ، طلبه ، اعتذر بكثافة ، طلب منه ان يحضر فورا . عند وصوله اعتذر السكرتير ، ان سفير الكاميرون بالداخل ، جاء لترتيب الزيارة المقبلة التى سيقوم بها ، ابتسم .. « بأذن الله سيكون لك نصيب .. »

احقا سيضحيه ؟ أحقا سيرحل ويشوف الدنيا ، أفريقيا الغابات والرقص والأقنعة الغامضة ، الخطوة القادمة الى اوروبا ، سيهاجمونه ويشنعون به ، لكنه بعد الرد من الآن ، عمله كمترجم فورى يقتضى ذلك ، لم يتنازل ، سيقول لهم ذلك . انه ينتبه الى مرور الوقت ، يبدأ فى قراءة الصحف الملقاة فوق المنضدة الدائرية ، يتخذ اوضاعا مختلفة للجلوس ، يرقب من طرف خفى بعض الذين دخلوا وبعض الذين خرجوا ، يبدو السكرتير وكأنه نسى وجوده ، بعد أربع ساعات من الانتظار بدا المسئول الشاب مرهقا .

« هل تناولت غداءك .. »

يهز رأسه .

« أذن تمضى الى البيت .. لتأكل اللقمة الموجودة »

انه بمفرده ، الأسرة بالخارج ، لا يوجد الا الطباخ ، تبعث الدعوة فى نفسه راحة ، تعنى خصوصية ما بينهما ، انه لا يتعامل معه على مستوى سياسى وحسب ، بل انسانى أيضا . تجىء السيارة السوداء المزودة بالتليفون ، يتمنى لو أن الضابط رآه اثناء نزوله بينما المسئول يمسك بذراعه .. يتذكر زميله عامل المطبعة القديم ، يشعر أن مسافة ابعد تفصلهما ، لا يهمه الآن استمراره فى العمل السرى ، أو القبض عليه ، اذا كان هو وأمثاله لا يهدون الانتباه الى الحياة الهادئة ، الممتعة ، فماذا بوسعه أن يفعل لهم .. ليحدث لهم ما يحدث ..

— ١٠ —

.. فى الصالة المدثرة بالظلال ابدى عدم اهتمامه بتردد الضابط قال إنه عمل

روتينى ، بحت ، وطبعا لا يخفى عليه ذلك وهو سيد المجربين .. ثم سأل ، هل عامله بما لا يليق ، هز رأسه ، بالعكس ، كان مهذبا جدا ، يبسط المسئول يديه . الم أقل لك ؟ انه اجراء عادى لا ضرر منه ، على اية حال يمكن الحد من تلك الزيارات ، أو وقفها تماما ، اذا ماوافق على خطوة بسيطة .. لكن يجب الا يسيء الفهم ، الا يأخذ كلامه بأكثر من معنى ، انه يقترح كتابة نصف صفحة يعبر فيها عن رأيه الجديد ، يبرز فى خطوط عامة تغير موقفه ، لماذا يقترح ذلك .. لابد من توضيح ، ان المستويات العليا تستمد معلوماتها من الأجهزة ، والملفات صماء لا تدرى بما يجرى داخل الانسان ، لا علاقة لها بمناطق الظل التى تتداخل فيها الألوان ، اذن .. ماقيمة هذه الورقة ؟ انها تقطع الطريق على الأجهزة ، انه يضمن له تصعيدها الى ارفع مستوى ، طبعا .. هذا مجرد اقتراح ، وموافقته أو رفضه موضع تقديره . فى هذه اللحظة دخل الطباخ سأل عن قهوة البك . قال انه يفضلها مضبوطة ، صاح المسئول الشاب ، انه يشربها مضبوطة أيضا ، باللصدفة ، انهما متفقين ، ثم تحدث عن اضطرابات العمال فى بولندة ، واهتمامه بها ، انه يهتم بمتابعتها لسبب لا علاقة له بالسياسة ، لأن بولندة أول بلد أوروبى زاره ، كان ذلك منذ خمسة عشر عاما . قال إنه قرأ عن جمال الطبيعة هناك ، قال المسئول الشاب متحمسا فجأة .. لا .. ليس الطبيعة فقط ، انه روح البلد ، شخصية المكان ، توقف ، بدا غارقا فى اجترار ذكريات بعيدة منعشة ، لم يشأ فض صمته ، لكنه قال بعد لحظات انه سمع عن رحلة قريبة الى الكاميرون سيقوم بها سيادته ..

- ١١ -

الآن ، ساعات نومه أقل .

يزعق لبواب العمارة لانه نسى أن يدفع بصحف الصباح من تحت الباب ، كما اتفق معه ، الم يعطه النقود مقدما . لماذا يهمل الآن اذن ، يتردد صوته مرتفعا ، بعد اغلاق الباب ، يلوم نفسه لأن الأمر لم يكن يستحق ..

يقترب منه موظف الاستعلامات ، يصافحه مستفسرا عن الصحة ، لم يرد فورا ، انما تساءل بينه وبين نفسه ، ماذا يقصد الموظف ، وهل من عادته ان يغادر مكتبه ليستفسر عن صحته ..

لم يكمل الرشفة الأولى من فنجان القهوة ، صاح مناديا عامل البوفيه ، هل اصابه الصمم ، طلبها مضبوطة ، مضبوطة وليست سادة ، لماذا يعانده عامل البوفيه .. .

يمشى فى الشارع وداخله غضب مكظوم انه يحمل عامل المطبعة القديم مسئولية ما يجرى له ، لو كف هو وأمثاله عن هذه الاستهانة ولفظ المتع ، لو اعلن كل منهم تأييده ، لما أضطر الى أن يعانى ما عاناه . يدير قرص التليفون ، يتصل بأحد معارفه القدامى ، اقترض منه حقيبة سفر منذ شهور ، لم يعدها اليه ، لماذا ؟ واذا كان يضمر نية الاستيلاء عليها ، لماذا لم يصرح بذلك ؟ انه يريد الحقيبة فورا ، ليتركها له فى استعلامات الفرع ..

يتذكر بكراهية عامل المطبعة القديم اثناء تناوله الطعام الردىء فى السجن ، ينهمك مستمتعا به بدون أن يتأفف أو يضيق ..

- ١٢ -

.. يخفض الضابط صوته ، يتساءل عن سبب انقطاعه عن المقهى النائى ، يقول انه لن يذهب اليه ، لا يرغب فى رؤية أحد ، انقطعت صلته بهذا المكان ، يهز الضابط رأسه ، انه يعرف ، يعرف ذلك جيدا ، ولكن تردده عليه الآن لن يسبب له أذى ، إن الورقة التى كتبها تحميه تماما ، لكن هل من السهل على الانسان قطع علاقته بمن ارتبط بهم احلى سنوات العمر .. ، يقول غاضبا انه لم يعد يطيق رؤيتهم ، انهم فى سكة وهو فى سكة أخرى .. يبتسم الضابط

هادئا .. ولو ..

- ١٣ -

لمدة اسابيع ، كان المسئول الشاب مشغولا ، اتصل مرات ، تجاهل صوت السكرتير البارد ، وعندما ذهب فى بداية الأسبوع الثامن اعترضه موظف الاستعلامات ، ان مدير المكتب مشغول ومقابلته متعذرة ، سلم الموظف مظروفا يحتوى على صور برقيات التأييد التى ارسلها ، ونسخة من الرسالة التى سجلها فى البيد مرتين . وصور من ايصالات مكتب البيد الرئيسى .. ،

- ١٤ -

.. فى الصفحة الأولى قرأ خبرا عن سفر المسئول الشاب الى الكاميرون على رأس وفد كبير للتصدى لمحاولات الدول المناوئة . أدار قرص التليفون ، رنين ، رنين ، رنين ..

- ١٥ -

انه فى ضيق ، يود ان يتحدث الى أى انسان ، ان يفضفض ، لكنه عندما رأى الضابط فى انتظاره عند مدخل الفرع خطر له أن يصبح فى وجهه . أن يطرده ، أن يضربه ، لكنه مد يده مصافحا ، ابتسم ، وكأن ما يجرى داخله شىء ، وما ينعكس على وجهه شىء آخر ، استدار ليصحبه الى المكتب ، لكن الضابط استوقفه . ان تردده على الفرع يهدد بكشف شخصيته ، وهذا ضار جدا بالأهداف العليا . انه يمد يده ببطاقة بيضاء تحمل اسمه ، يكتب رقم التليفون ، يقول باختصار حازم .. عندما تجىء ستبرز هذه لمدير مكتب الاستقبال ... »

١٩٨٠

• • •

الفهـرس

الصفحة

ـــ اتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان ٥
ـــ غريب الحديث فى الكلام عن على بن الكسيح ٢١
ـــ العرى ٣٧
ـــ نوبة حراسة ٦٣
ـــ القلق ٧٧
ـــ المرصد ٩٣
ـــ المحصول ١٠٣
ـــ البقايا ١١١
ـــ الرؤية ١١٩
ـــ المركب العنقودى ١٢٩
ـــ على المستوى السياسى ١٣٩